كيفَ نُربّي المُراهِق

الدكتور موسى الخطيب

كيفَ نُربّي المُراهِق

دار الجيل

ISBN: 978-9953-78-338-3



بيروت البوشرية، شارع الفردوس، ص.ب.: 8737-11
هاتف: 52-51-009611689950 - فاكس: 009611689953
E-mail: info@daraljil.com - Website: www.daraljil.com
تونس هاتف: 0021671922644 - فاكس: 0021671923634
القاهرة تلفاكس: 0020222634693

إهداء

إلى ريحانتـيّ في هذه الحياة: عمرو ومحمد

إلى البارّة أُمي

إلى روح أبي



تقـديم

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على ينبوع الحكمة، ونبي الرحمة الذي أدبه ربه فأحسن تـأديبه، وأتم لـه من مكارم الأخلاق، وجلائل الشيم نصيبه، فسارت سيـرته المحمـودة على أكمل مثال للمربين، وأفضل هدى للمرشدين، وعلى آله وأصحابه وأزواجه الهادين المهتدين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فقد مضت سُنّة الله سبحانه وتعالى في الإنسان أن يُخلق عاجزاً جاهلاً محتاجاً إلى الكافل الذي يحوطه برعايته، ويقيمه على الصراط المستقيم السويّ في معيشته، ثم يتدرج في القدرة والعلم حتى يبلغ ما أُعدّ له من الكمال الحسيّ والمعنويّ بحسب استعداده، وعلى مقدار عناية قيمه بتربيته.

* * *

من أجل هذا تفـاوتت درجات النـاس تفاوتـاً عظيمـاً في القدرة والعجـز والعلم والجهـل، وتنوعت آثـار هذه الصفـات فيهم تنوعـاً لا يحده وصف ولا يشمله حصر، وتبع ذلك اختلاف الأمم بالترقي والتدني والعزة والذلة . . فمن أمة عظيمة عنيت بتربية أبنائها، وتهذيب أخلاقها، وتثقيف عقولهم، وإنشائهم أحراراً عشاقـاً للعلم يخدمـونها ويخـدمونـه مختارين كمـا يخدمـون أنفسهم، فأشرقت في ربوعها شمس العلم، وكشف لها الحجاب عما سخّر لها من قوى

الكون، فاستخدمتها في حاجاتها، وحاجات نظرائها، واستعانت بها في تحسين أحوالها، وترقية معايشها.

* * *

ولو رحت أعد لـك آثار التـربية المُثلى والعلم النـافع في الأمم الـراقية لاحتجت في تفصيل ذلك إلى مجلدات، فأجتزىء عنه لما لمحت إليه تلميحاً وحاشا لله أن أكون قد أوفيته بعض حقه.

وأُمة أخرى لم تبلغها دعوة العلم ولا رأت آثار التربية في غيرها، فلازمت حالتها الفطرية ومعيشتها الوحشية، فكان ذلك مدعاة إلى وقوف نمو العقل في أبنائها وانمحاء ما فيها من ضروب الاستعداد وكان مصيرها خسران وجودها الذاتي وفنائها في غيرها من الأمم الحية.

* * *

وأُمة ثالثة خُلقت مستعدة للرقي وسارت في سبيله شوطاً بعيداً بما نشأت عليه من الحرية، وتحققت به أصول التربية الإسلاميـة الصحيحة، فنـالت في الزمن اليسير من العزة والمجد وبسطة السلطان ما لم ينله غيـرها من الأمم في الزمن الطويل. ربَّاها مرشدها الأكبر سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بسيرته السنية على حب العدل، والإيفاء بالعهـود، وإنفاق الأمـوال في وجوه الخيـر، والتآخي في نصرة الحق، والترفع عن سفاسف الأمور. وأوجب طلب العلم من المهد إلى اللحد على أفرادها نساءً ورجالاً غير مخصص علماً بعينه. فنبغ فيها رجال لم تسمع الأيام بنظرائهم ولن تلد الوالدات أمثالهم.

وا أسفـي علـى هـذه الأمـة، أسـف تنخلـع لـه النفـس أسـى. ويُـذيـب القلـب حسـرة، ما لبثت أن بطرت معيشها، وبعـدت عن الطريق السـويّ المستقيم، فوجد عليها الزمان وانتابتها نوائب الحدثان.

وإذا كان هذا شأن التربية في رفع الأمم وحفظها، كان حقاً على العقلاء من كل أمة أن يعنـوا بها ويفكـروا في الوصـول إليها من أقـوم طرقها، ويبينوا أصولها، ويدونوا فيها الكتب النافعة ويحثوا قومهم على الأخذ بمـا فيها. وقـد خرج من عهدة هذا الحق علماء الأمم الحيـة في أوربا وأميـركا، فـوضعوا من

قواعدها ما ظهرت آثارها في أقوامهم، وأكسبتهم حُسن الذكر في بلادهم، وغفل عن ذلك غيرهم من خواطر الأمم التي تتنازعها الحياة والموت لغلبة القنوط عليهم، فلم يوجد لديها من الكتب الحديثة في موضوع التربية إلا بعض رسائل لا غناء بها فيه.

* * *

وجلّ ما أبتغيه ممن أقدم إليهم كتابي هذا من بني وطني الحبيب مصر العزيزه .. وإخواننا في الأقطار العربية الشقيقة هو العناية بتربية الناشئين، ويعلموا أين نحن الآن من دول التقدم والحضارة في أوربا أمريكا؟! حتى إذا آلمهم النقص الفاضح، وأخجلهم التقصير الفاحش، هبوا إلى مجاراة غيرهم من هذه الأمم الراقية، وفكروا طويلاً في تربية أبنائهم، وتخيروا عن بصيرة وعلم لا عن تقليد محض، أكمل الطرق لإنشائهم أحراراً، جامعين بين ملكات العلم وفضائل الدين، ولن يتم لهم ذلك إلا بالإخلاص والصبر ودوام العمل والله المستعان وبه الحول والقوة وعليه التوفيق.

دكتور موسى الخطيب



الفصل الأول

أهمية التربية للمراهق

أهمية التربية للمراهق

لكي نقي أبناءنا في مرحلة المراهقه من مزالق السوء والانحرافات وفساد الأخلاق، يجب توجيه التربية إلى الاهتمام بأوقات الفـراغ فهي مفسدة للروح والخلُق والعقل والبدن، لأن مشاكل الأحداث تأخذ في الاطراد والزيادة كلمـا وجدوا أنفسهم في هوة من الفراغ فسيحة، ولا يعـرفون مـاذا يعملون؟ ولا أين يتجهون؟

ومـا أكثر الفـراغ في عصرنـا هذا سـواء في ذلك المـدارس والمعـامـل والأسواق!

ولهذا ينبغي أن تتجه التربية إلى استغلال أوقات الفراغ لبعث روح التدين والفضيلة في نفوس النشء وتوسيع معلوماتهم، وسبيلنا إلى ذلك وسائل التعليم غير المباشرة، حيث يعرضون على التلاميذ الأفلام النافعة البناءة، أو يتعلمون الكومبيوتر وهو ضروري جداً في عصرنا هذا ونأمل في القريب العاجل أن تتجه الدولة إلى إدخال برامجه التعليمة المختلفة من سن الإلزام (المرحلة الاعدادية) إلى الجامعة حتى يمكننا أن نلحق بركب التطور الحضاري السريع.

ومنها أيضاً الاستماع إلى الإذاعة وقراءة الصحف والمجلات، أو يرتادون المكتبات لقراءة الكتب، أو ينخرطون في سلك الأندية الأدبية أو الريـاضية أو الكشفية أو معسكرات العمل، وزيارة المتاحف والمعارض، وتنظيم الرحلات، أو زيارة المساجد للصلاة أو للحلقات الدينية والثقافية.

* * *

شيئان لازمان لتربية النشء لزوم الشيء لظله:

وهما لازمان لرقيّ الأمه ونهضتها: العِفّة والحِرْفة، أما العفَّة فسبيلها تربية الضمير منذ الطفوله وكذلك يبدأ تعليم الحِرْفة في سن مبكـرة. وعليه فتـلاميذ الريف يحترفون الزراعه مثلاً في أوقات فراغهم ولا ضير عليهم في ذلك بل إنهم يباهون أقرانهم من غير الفلاحين بهذه الفضيلة التي تعود عليهم وعلى أوطانهم بالنفع والخير الوفير.

والقصد من التربية هو أن يصير الفرد عضواً نافعاً في أُمته. أما التلاميذ في المدينة فأمامهم الحِرَف المختلفة يختار كل منهم ما يناسب ميـوله واستعـداده الفطري لِهذه الحِرْفة أو تلك، وكلها نافعة ومفيـدة،مهما صَغُـر شأنهـا فقيمتها الكبرى أنها تجعل صاحبهـا حراً وأنهـا مصدر رزق دائم وسعـادة دائمة للفـرد ولأسرته، ومن ثم يتحول المجتمع من مجتمع استهلاكي (كالذي نحن فيه الآن ومعنا بقية الدول النامية) إلى مجتمع إنتاجي (مثل باقي الدول المتطورة: أمريكا وأوربا واليابان . . . مثلاً).

* * *

والهدف من كل ذلك عصمة الناشئة من المفـاسد في أوقـات الفراغ ثم إتاحة الفرصة في هذه الأجواء من النشاط لمعالجة العادات غير المرغوب فيها، وإعلاء الغرائز ثم بناء الصفات الاجتماعيه بناء سليمـاً نقياً من الفسـاد والزيـغ حتى تبدو شخصية الفرد متكاملة إلى أقصى حد ممكن.

والـواقع أن حُسن استثمـار وقت الفراغ قـد أصبح مقيـاساً من مقـاييس الحضارة بالنسبة للشعوب، وكثيراً ما يتحدد اتجاه الدولة نحو البناء الاجتمـاعي وفقاً لمفهوم هذه الدولة وفلسفتها تجاه وقت الفراغ، من أجل ذلك عنيت الدول المتحضرة بوضع الخطط المختلفة لحُسن الاستفادة من وقت الفراغ بما يعـود على المواطن وعلى الدولة بالنفع.

* * *

وقد دلت الأبحاث النفسيه والاجتماعية على أن الفراغ يـأتي على رأس الأسباب المباشرة لانحراف الشباب وخاصة في مرحلة المراهقة، وهو المسؤول

عن مشاكل تشرد الشباب وجموح الأحداث والتسكع في الشوارع، والانضمام إلى رفقاء السوء والعصابات وإدمان الخمر والمخدرات، وكل ما يؤدي إلى تدهور الأخلاق والقيم والأمراض النفسيه.

والحل السليم لمشكلة وقت الفراغ ـ كما أثبتت الدراسات والأبحاث ـ هو ما يسميه علماء النفس بأسلوب الاستبدال، وهو يحول فكر المراهق وقلبه من الاتجاه وراء دوافع الغرائز، ويتجه بها وجهة نافعة تتفق مع مصلحته ومصلحة المجتمع. . .

وتهتم الدول المتقدمة بهذا الأمر فتهيىء لشبابها كل الوسائل لحُسن استغلال وقت الفراغ مثل الملاعب الرياضية المتكاملة والنشاط الكشفي والرحلات والمكتبات ومراكز الثقافه والخدمة العامة ومعسكرات العمل وغيرهما.

أهمية التربيه لليتيم:

أما اليتيم ـ وهو من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال ـ وقد اهتم الإسلام بتربية اليتيم اهتماماً بالغاً مما يوفر المناخ الصالح لتلك التربية، ويكفي في الإشارة إلى شأنه ومكانة العناية به أن نذكر قول النبي ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنَّة هكذا» وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى ليدل على أنهما قرينان أو صنوان، ويقول الله تعالى لرسوله في القرآن الكريم في سورة الضحى؛ بعد أن ذكّره بفضله عليه حال يتمه: ﴿**فأما اليتيم فلا تقهر**﴾ ويوضح الإمام محمد عبده تفسير هذه الآية ببيان جلي فيقول: «لو علم الناس ما في تربية الأيتام من الفساد في الأمة، لقدروا عناية الله بأمرهم حق قدرها، ولبذلوا من سعيهم ومن مالهم في إصلاح حال الأيتام كل ما استطاعوا، ولو أحس كل واحد بأن الموت قريب منه وأنه هدف لنباله، ولا يدري متى يأخذه عن ولده، فيتركه إما غنياً يأكل ماله الأوصياء، أو فقيراً يستذله الأدنياء، لتسابقوا إلى تقويم أمر اليتيم.

* * *

ولكن متى يبدأ المناخ الصالح للتربية الإسلامية؟

أما عن المناخ الصالح للتربية فإن عناية الإسلام بهذا الأمر لا تبدأ في فترة المراهقة، وإنما تبدأ مبكراً جداً وتعود إلى فترة ما قبل الحمل، وهذا ما وصلت إليه مدارس التربية الحديثة إذ تتحدث في إعداد الناشئ عن فترة ما قبل الحمل، وأثر بيئة الزوج والزوجة ووراثتهما فيه.

فالإسلام قد سبق إلى تقرير ذلك فوصى من يريد الزواج أن يختار الزوجة الصالحه من الناحية الوراثية الجسمية، ومن ناحية الصفات الوراثية النفسية، فقد نصح الرسول عليه الصلاة والسلام بالابتعاد عن زواج القريبة القوية القرابة لما يحدث عن هذا الزواج غالباً من ظهور الصفات الوراثيه السيئة في الأبناء فقال: «اغتربوا لا تضووا»، ودعا إلى الأناة في ذلك مبيناً أن أثر الوراثة يمتد إلى أجيال بعيدة فقال: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس» وفيما يتصل بأثر البيئة حذر من الانخداع بجمال المرأة التي نشأت في بيئة فاسدة لما قد ينشأ عن هذا الزواج من خطر على الحياة الزوجيه أو الأبناء فقال: «إياكم وخضراء الدمن» قالوا: وما خضراء الدِمَن يا رسول الله؟ قال: «المرأة الحسناء في المنبت السوء»، ومن الطبيعي أن ما يصدق على المرأة في هذا الصدد يصدق كذلك على الرجل.

* * *

ولتوفير الجو الحاني الرقيق حرص الإسلام على أن ينشأ الطفل في ظل أبويه، فحاط الزواج بسياج من الروابط القوية التي تحميه من التفكك، بما شرع فيه لكل من الزوجين من حقوق، وما فرض على كل منهما من واجبات، وبتنفيره أشد التنفير من الطلاق، قال عليه الصلاة والسلام: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» كما أنه جعل حضانة الطفل حتى السابعة، وحضانة الطفلة حتى التاسعة من حق الأم، لأنها أحق وأرفق من الأب.

ولكن الإسلام مع هذا الحنان الرقيق في سني الطفولة الأولى، لا ينسى الجزم الموجه، فهو ينقل حضانة الطفل والطفلة في سن معينه إلى الأب، وهو يوصي أن يوجه الطفل إلى الصلاة في سن السابعة، وأن يؤخذ بالشدة إذا تركها في سن العاشرة.

عناية الإسلام بالاستفادة من أوقات الفراغ للمراهقين

لقد عني الإسلام أعظم العناية بهذا الأمر، فهو يحول فكر الفتى والفتاة إلى التركيز على نواح كثيرة ومفيدة مثل تحصيل المعرفه والعمل والعبادة والرياضة وغيرها.

أولاً: التعليم وتحصيل المعرفه

فالتعليم وتحصيل المعرفة أمر إجباري ومستمر مدى الحياة، قال رسول الله ﷺ: «اطلب العلم من المهد إلى اللحد» وفي ظل هذين المبدأين يجد الشاب نفسه مطالباً أن يتعلم وأن يستمر في التعلم ما دامت الحياة، ويجد ذلك أمراً حتمياً لا مناص منه. وهو بهذا يتابع الخُطى على طريق المعرفة مدفوعاً إليها بدافع من دينه، أو مشدوداً إليها برغبة مُلحة من نفسه، وفي كلتا الحالتين يعيش مشغول القلب يطلب المعرفة ويستضيء بوعي منها مشرق مستمر، متجدد، يهديه إلى أقوم السبيل.

* * *

ثانياً: ممارسة الرياضة

وأولها رياضة البدن، حيث يمدح الإسلام المؤمن القوي ويعتبره أنفع وأفضل عند الله من الضعيف فيقول الرسول الكريم ﷺ : «المؤمن القوي خير وأحب إلي الله من المؤمن الضعيف». ويقول في حديث آخر: «إن لبدنك عليك حقاً».

وحث الإسلام على تعلُّم السباحة والرماية وركوب الخيل، وغير ذلك من ألوان الفتوة الرياضية يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «علِّموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل». وكان عروة بن الزبير رضي الله عنهما يقول لولده: «يا بني العب فإن المروءة لا تكون إلا بعد اللعب» وفي معناه يقول أبو تمام:

ولا جدَّ لمن لم يلعب

وشرع السباق في الجري، واشترك النبي ﷺ في هذا حيث تكررت منه مسابقته لزوجته السيده عائشة رضي الله عنها.

* * *

وشرع الإسلام أيضاً المصارعة، والنضال بالسهام، والرماية بالقوس، والرهان والطعن بالرمح والحربة، وركوب الخيل مسرجة ومعرّاة، والضرب بالسيف ورفع الأثقال، والسباق بين الفرسان المتسابقين على الخيل أو الإبل، ووضع الرسول الكريم لهذه المسابقات نظماً وتفاصيل، وعوّد صحابته أن يتعلموا التواضع في ذلك، مع الاستعداد للتحدي حينما لا يُجدي التواضع.

ولهذا نهيب بالمختصين التوسع في إنشاء الأندية الرياضية وجعلها ميسورة أمام الشباب لمزاولة النشاطات الرياضية المختلفة حتى ينشأ الفتيان أقوياء فيصبحوا نافعين لأمتهم ولأوطانهم.

* * *

«ما أشقى الرجل الذي يملأ بطنه بالطعام طوال اليوم دون أن يجهد عقله في شيء ـ لا يتواضع في شبابه التواضع الخليق بالأحداث. ولا يفعل في رجولته شيئاً خليقاً بأن يأخذه عنه غيره، ثم يعيش إلى أرذل العمر.. إن هذا الإنسان وباء...!!...».

كونفوشيوس[1] (حكيم صيني).

(١) كونفوشيوس: هو أحد مشهوري فلاسفة الآداب وعلماء الأخلاق في الصين وُلد في سنة ٥٥١ وتوفي سنة ٤٩٩ قبل المسيح.

الفصل الثاني

كلمات مضيئة



كلمات مضيئة

١ ـ تعلموا من أجدادكم قدماء المصريين:

إن الاحساس الإنساني في الفكر المصري القديم ينبض نبضاً قوياً باراً، رحيماً.

يقول: «أهنموبي» في تعاليمه: «احذر أن تسلب فقيراً بائساً، وأن تكون شجاعاً أمام رجل مهيض».

ويعلق الأستاذ الكبير/ خالد محمد خالد[1] . . . «إنها تمثل ضميراً بلغ رشده، بل جاوز رشده».

ومرة أخرى نعود إلى تعاليم «أهنموبي» والتي عثر عليها المكتشف البريطاني السير «ولس بدج» عام ١٨٨٨ م، وما زالت ثاوية حتى اليوم في المتحف البريطاني في لندن.

«ولا تسخرن من كلمة رجل هَرِم، ولا تكن قط رسول سوء، ومن فعل فاحشة فإن المرفأ يفلت منه وأرضه المبللة تحمله بعيداً. . . وكذلك إعصار الشمال يهب ليقضي على حياته».

ويرتفع مستوى التفكير لكي يسمو بالفرد بعيداً عن الحماقات والجدل العقيم فنراه يقول: «لا تشتبكن في جدال مع أحمق ولا تجرحه بالألفاظ» «تأنَّ

---

(١) كتاب أفكار في القمة للأستاذ الكبير/خالد محمد خالد.

أمام متطفل، واعرض عمن يهاجم» وما زال «أهنموبي» العظيم يسمو بنا ويقدم لنا أفكاراً في القمة، فنراه يقول في عبارة متألقه: «نَم ليلة قبل التكلم. . .»!! (لماذا؟؟).

تأمل هذا التعبير جيداً. . . إنه يدعو للأناة في الحديث وتدبر معنى الكلمة قبل نطقها، ولكن أهنموبي الحكيم وكأنه أدرك هذا التساؤل في نفوس أبنائه عبر القرون. . . فنراه يجيب في عبارة بليغة: «نم ليلة قبل التكلم. . لأن العاصفة تهبّ قبل النار في الهشيم. . والرجل الأحمق في ساعة غضبه يجب أن ينسحب من أمامه، وتتركه لحماقته والله يعلم كيف يجزيه. .». «إذا أمضيت حياتك واعياً هذه الأشياء في قلبك فإن أولادك سيبصرونها. . .»

* * *

ثم يضرب مثلاً للأحمق؛ نعوذ بالله من شره؛ فيقول:

«أما الأحمق فمثله كشجرة نبتت في الغابة، في لحظة تفقد خضرتها. . ويكون مصيرها في مرفأ الأخشاب أو تنقل بعيداً من مكانها. . حيث النار مثواها»

ويتحدث عن الحليم فيقول:

«أما الرجل الحليم حقاً. . . فمثله كشجرة باسقة في حديقة، تنمو يانعة وتضاعف ثمرتها. . ثمرتها حلوة. . وظلها ظليل. . وتظل مكانها في الحديقة. .».

ويمضي بنا هذا الفكر الأخلاقي الرصين نحو الأهداف النبيلة لبناء المجتمع، ورقيّ الأمة، ويصف السبيل لتحقيق هذه الغايات، فنراه يقول في عبارات تمتلىء نوراً وإشراقاً:

«ازرع الحقول، كي تجد ما تحتاج إليه، وكي تجني خبزك من حرثك».

«وإن المكيال الذي يعطيك الله إياه، خير لك من خمسة الآف تكسبها بالبغي. .»

«وأرغفة تكسبها بقلب فرح، خير لك من ثروة مع شقاء. .»

«لا تفرحن من أجل ثروة تأتيك عن طريق السرقة فإن زورق الرجل الشّر يغوص في الوحل، وزورق الرجل الأمين يقلع مع النسيم».

* * *

ثم يتحدث في رقة وعذوبة عن تربية الضمير فيقول:

«لا تتكلمن مع إنسان كذباً فذلك ما يمقته الله..»

«ولا تفصلن قلبك عن لسانك؛ حتى تكون كل طرقك ناجحة..»

«وكن ثابتاً أمام غيرك من الناس؛ لأن الإنسان في مأمن في يد الله..»

«وإن الممقوت من الله من يزوّر في الكلام، وأكبر شيء يكرهه النفاق..»

«وإن النجاح ليخطىء الرجل الخائن..»

«لا تؤدين شهادة كذباً، ولا تستعمل قلمك في باطل..»

«كن حازماً في قلبك وثابتاً في عقلك ولا تتحرك مع لسانك..»

«ولا توجهن كل التفاتك إلى فرد قد لبس ملابس بيضاء ناصعة، بل احترم أيضاً لابس الخرقة البالية..»

«ولا تظلمن ضعيفاً من أجل رجل قوي، وابغِ الحياة لنفسك»..

* * *

«لا تمنعن أحداً من عبور النهر.. إذا كان في زورقك مكان..»

«ولا تصنعن لنفسك مَعْبراً على النهر.. ثم تجاهد بعد ذلك لتجمع أجرة..»

«خذ الأجر من الرجل الثري.. ورحّب بمن لا يملك شيئاً».

وينفر من الشراهه فيقول: «إذا أشبعت نفسك من طعام محرَّم فإن ذلك ليس إلا لذة ريقك، أنظر إلى الوعاء الذي أمامك وكن مكتفياً بما فيه».

ويوصي بالرزانة. وكتمان السر فيقول: «إن التمساح الصامت يكون الفزع منه شديداً..».

«لا تفضين بقرارة نفسك لكل إنسان، ولا تتلفن بذلك نفوذك».

* * *

وفي عصر الأسرة الخامسة، نلتقي بالوزير الحكيم «بتاح حوتب»، إنه يقدم لنا من فيض حكمته الخالدة، ما يسحر الألباب فيقول:

«إن الصدق جميل، وقيمته خالدة، وإنه لم يتزحزح منذ يوم خالقه.. والذي يتخطى نواميسه يُعاقب، وهو أمام الضال، كالطريق المستقيم «إن الشر والكذب قد يكسبان الثروة ولكن قوة الصدمة في أنه يمكث.. والرجل المستقيم يقول: هذا ميراث أبي!!»

* * *

«إذا كنت قادراً فاجعل عنايتك في العلم، وفي القول الفصيح»
«واذكر أن التصرف المطلق يؤدي إلى السوء».
«لا تكن أقوالك مصحوبة بالأنفة.. وتكلَّم بدون حِدّة. إن الرجل الهادىء يخوض عُباب العوائق، والرجل الدائم الغضب لا يتيح لنفسه وقتاً طيباً»..

* * *

ونختم رحلتنا هذه، ونذهب إلى «خيتى» أحد ملوك الأسرة العاشرة فنستمع إليه يتحدث عن الحياة الآخرة وكيف يستعد لها الإنسان؟ فنراه يقول:

«سيُنشر الإنسان حين وصوله إلى الشاطىء الثاني وسيجد أعماله هناك محيطة به.. إنها الأبدية لا شك فيها.. ومجنون من يحتقرها..»

«إن الحياة على الأرض، تمضي على عجل، وامتلاك الألوف من الرجال، لا يميز مالكهم»

«ومن يعش عيشة الفضيلة، فإن نصيبة الخلود». «والفضيلة التي يتحلى بها الرجل العادل أفضل في عين الله من النور الذي يقدمه الشرير قرباناً»

«على أنه ينبغي مع ذلك للرجل أن يفعل ما ينفع روحه في الحياة الأخرى، فيقدم القرابين لله فإن الله يعرف من يفعل له شيئاً»..

«إن الله خلق الناس منه.. وعلى صورته..».
«وإنه يسمعهم حين يبكون، وحين يشكون».
«وما جعل فيهم رؤساء إلا ليسندوا ظهور الضعفاء».

وفي هذه العبارة الأخيرة، بيان موجز ووافٍ لمهمة الحاكم ومن يرعى شئون الوطن وهي: مؤزارة الرجل العادي، ومنحه فرصته في الحياة. ويتابع «خيتى» وصيته لمن وكل الله إليهم أمانة الوطن والمواطنين، الرؤساء والملوك، فيقول:

«لا تعاقب في غير ذنب.. ولا تؤذ أحداً بغير حق..»
«وإن أفضل الأشياء للحاكم أن يكون ذا قلب سليم».
وهو بحق مسك الخِتام، وفي هذا فليتنافس المتنافسون.

* * *

الفصل الثالث

كيف تربي ضميرك ؟

كيف تربي ضميرك؟

الضمير لغة: السرّ والخاطر والجمع الضمائر وعرَّفه اللَّيث بأنه: «الشيء الذي تضمره في قلبك» تقول: أضمرت في نفسي شيئاً، وأضمرت الشيء: أخفيته، وهوى مضمر: مخفي. والمضمر: الموضع والمفعول، قال الأحوص بن محمد الأنصاري:

ستبقى لها في مضمر القلب والحشا ... سريرة ود يوم تبلى السرائر
وكل خليط لا محالة أنَّه ... إلى فرقة حيناً من الدهر صائر

وتبدأ تربية الضمير عند الناشئة منذ نعومة أظفارهم في عهد الصغر فيعوّد الطفل على حب الحق والخير بالقدوة الرشيدة الواعية المستنيرة فينشأ مفطوراً على حب الفضيلة والتدين.

يقول أحد الحكماء: «إن ضميراً بلا اعتقاد كمحكمة ليس بها قضاة».

وأما عن القدوة الصالحة فينبغي أن لا يكتفي المعلمون بتعليم التلاميذ مواد العلوم بل يبذلون قصارى جهدهم في تأديب طباعهم وتهذيب أخلاقهم، فهم يعملون لتطهير نفوسهم من خبيث الرذائل كالأثرة والفسق والظلم والكذب والقسوة على الحيوانات، ولا تكون طريقتهم في ذلك مجرد إلقاء القواعد والتعاليم المبهمة المجملة بل هم يرجعون إلى وجدانهم الفطري ويذكرونهم بشرف الإنسان وسموّ منزلته على سائر الحيوان.

وفي بلاد الحق والخير والجمال هناك مدرسة تفكر بهذه الطريقة، فتعال معي لنذهب سوياً إلى هذه المدرسة لنرى كيف يحكم التلاميذ على بعضهم البعض في كثير من الأحوال؟ ويقدرون بأنفسهم درجة أفعالهم في الحُسن أو القبح؟

ولو شئت لسردت لك كثيراً من الحكايات في هذا الموضوع. ولكن أكتفي بأن أقصّ عليك واحدة منها ليكون في ذهنك صورة لتلك الطريقة فأقول:

تأخر تلميذان ذات يوم عن الوقت المقرر لدخول المدرسة بربع ساعة. وهما أخوان في الرابعة أو الخامسة من عمرهما، فقرر المدير أن يُسألا عن سبب التأخر، ويُقْبلا في فرقتهما بلا عقاب إن أبديا عذراً صحيحاً، وجعل الحكم على صحة العذر وفساده للمدرّسة كما هي العادة عنده في جعلها محكمة شرف تقضي على التلاميذ ولهم فيها ما يفعلون.

فلما مَثُل المتهمان الصغيران أمام المحكمة اعتذرا متعاقبين عن تأخرهما، بأنهما صادفا في طريقهما، دودة غليظة لم يكونا رأيا لها نظيراً في حياتهما فراعهما منظرها ومُلئا منها عجباً، لأن هذه الحشرة كانت تتمثل في أشكال وأوضاع غير معهودة لهما، فكانت تارة تقف على ذنبها وطوراً تمتد على الأرض وآونة تكون ملتوية، وأنهما بينما كانا يستمتعان بمشاهدتها، كانت تنساب إلى الأمام حتى بلغت جُحْراً فغاب أثرها فيه، فلم يمهلهما المدير ريثما يتمان قولهما بل سألهما:

لماذا لم تقتلا هذه الدوده؟

فحدَّق إليه الغلامان ولم يحيرا جواباً؛ فاستأنف السؤال قائلاً: أما كان لديكما من الوسائل ما يعينكما على قتلها حتى كنتما بذلك تقطعان سبب إبطائكما في الطريق؟

فقال له أكبرهما: بلى! كنا قادرين على قتلها من غير شك، ولكنا لو كنا ارتكبنا هذا الفعل، لكان ذلك منا شراً وقسوة».

فقوبلت هذه الكلمات من جميع الحاضرين بالمدح والاستحسان، وحُكِمَ ببراءتهما من التقصير.

* * *

ومن ثُمَّ فإنهم يزعمون أن التبكير في تربية وجدان التكليف في نفس الطفل، لا إفراط فيه يذم مهما تُوسِّع في التعجيل به، ففي رأيهم أنهم متى أريد أن تكون الحكومة على صورة ما، يجب أن تهيأ لقبولها نفوس الناشئين، وإن ما يحفظ القانون ويضمن بقاءه من أنواع الكفالات لا يستقر إلا بارتياض الناس به منذ بداية أعمارهم، ودَوام اعتيادهم إياه.

* * *

ومما قاله لي حكيم هذه البلاد التي حدثتك عنها: «أنا لا أُشير على أي بلد باختيار طريقتنا في التربية، ما لم يقارنه زرع ما لدينا من ضروب الحرية في نفوس أهله. فنحن في بلادنا نحتاج إلى رجال مطبوعين على حب الاستقلال. موافقة لما تقتضيه قوانيننا وأوضاعنا، أكفاء لإطالة مدة بقائها بما يكونٍ منهم في سبيل ذلك من المجاهدة الشديدة. وإن طريقتنا في تربية الأطفال إذا اتُّبعت في غير بلادنا نشأت عنها رعية يتعذر حكمها وسياستها»!!

* * *

١ ـ ذات يوم سأل الرسول عليه السلام سائل عن البر والإثم؟ فأجابه الرسول عليه الصلاة والسلام: «البر ما أطمأنت إليه النفس، ورضي عنه القلب.. والإثم ما حاك في صدرك، وخشيت أن يطلع عليه الناس».

انظر أي معيار حاذق وصادق يرفعه الرسول للسلوك! إنه يربط السعادة بالبر ـ ويربط الشهوة بالألم. لأن السعادة قطعاً في طمأنينة النفس، وفي شجاعة القلب، وهما ثمرة الحياة الواضحه النظيفة العائشه في النور والطهر.

أما قلَق النفس، وضجر الضمير، والحياة التي تطاردها أشباح الخوف، والندم، واللوم.. فتلك هي التعاسة، وذاك هو الشقاء.

* * *

ولقد سأل رجل النبي صلوات الله عليه: كيف يزكي المرء نفسه ويصفيها؟ فأجابه: «أن يعلم أن الله معه حيثما كان، وفي رواية أخرى: «إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت».

* * *

هذا أحد حكماء الإسلام يقول: «إن أكبر مقومات الضمير هو الاعتقاد بإله قادر، يحاسب على الكبائر والصغائر، ويطلع على ما تكنه السرائر، وبحياة بعد هذه الحياة، يُثاب أو يُعاقب فيها الإنسان على ما قدمت يداه، فكل تربية وكل تعلم لا يغنيان عن صاحبهما شيئاً ما دام ضميره مقفراً من هاتين العقيدتين، وهذا هو المشاهد المحس، فإن الناس في أيام جهالتهم، وعدم انتشار التعليم فيهم، كانوا بفضل هاتين العقيدتين أفضل حالاً، وأقوم أخلاقاً مما هم عليه اليوم، يشهد بذلك كل من أطلع على التاريخ ودرس أحوال الأمم في أدوارها المختلفة».

* * *

وهذا هو الأستاذ «أرنولد تونبي» صاحب الكتاب المشهور المسمى «دراسة في التاريخ»، والذي قضى في تأليفه ثلث قرن كامل، وتم الكتاب كله في عشرة أجزاء لا تقل صفحاتها عن سبعة آلاف صفحة، ولم ينته من أجزائه الأخيره حتى بدا له أن يعيد النظر في بعض الآراء التي ظهرت في الأجزاء الأولى، ولكن المهمة شاقة، والتكاليف كثيرة، فتبرع له بعض المعاهد العلمية بالنفقه اللازمة للسياحة في مواطن الحضارات الدائرة والإقامة حيث تلزم الإقامة زمناً بين آثار المكسيك والشرقين الأقصى والأدنى، ولا تنتهي هذه السياحات قبل سنتين من ظهور آخر جزء في الكتاب.

مجهود من مجهودات الجبابرة، وعلم واسع يؤهل صاحبه للحكم على دلالة التاريخ الإنساني من مبتدئه إلى عصره الحاضر، نرُى ما هي خلاصة التاريخ الإنساني في رأي هذا المؤرخ الكبير؟ ما هو الرأي الذي يراه في تاريخ الإنسانيه أحق علماء التاريخ بإبداء هذا الرأي في القرن العشرين؟

* * *

خلاصة هذا الرأي سطر واحد وهو «أن التاريخ هو طريق الإنسانية إلى الله» هذا هو الإجمال الذي شرحه المؤرخ الكبير في سبعة آلاف صفحة وقرر في ذلك الشرح أن تواريخ الأمم والحضارات والعقائد والأخلاق، لا معنى له إن لم يكن معناه هداية النفس الإنسانية إلى حرية الضمير برعاية الإله، فليس

أقوى من الإيمان على تسيير الإنسان والارتقاء به على معارج الحضارة في طريقه إلى الله.

* * *

وإنما يوجد الضمير الحق عند الإيمان بالله مالك الملك، لأن الله جل جلاله مطلع على كل شيء: **﴿وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾**[1] **﴿سواء منكم من أسرَّ القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾**[2] وإذا أيقن الإنسان باطلاع الله على حركاته وسكناته وعلمه، بخفي أمره وجليه، أدرك أن الله معه حيثما كان: **﴿وهو معكم أينما كنتم﴾**[3] فاستحيا من الله المرافق له الرقيب عليه، القريب منه فخشيه بالغيب، وخافه في كل حال، ففاز بالخير في أولاه وأخراه: **﴿إنما تُنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمٰن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم﴾**[4] **﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير * وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾**[5].

ومتى تحققت هذه الخشية تحقق الضمير الحي المصاحب الدائم الذي لا يخون ولا يمين، والذي يبلغ بصاحبه درجة الإحسان، وهي أعلى مراتب العبادة في الإسلام، وقد عبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن هذا الإحسان بما تفهم منه أنه سيطرة الضمير الديني على صاحبه، حتى لا يدعه يهفو أو يغفو، فيقول: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

* * *

وقصة عُمر مع ابنة بائعة اللبن مشهورة، وسلطان الضمير الديني لائح واضح، فقد سمع عمر وهو يتفقد أحوال الرعية امرأة تقول لابنتها داخل البيت: يا ابنتي، قومي اخلطي اللبن بالماء، فأخبرتها الفتاة أن منادي الخليفة عمر، قد نادى بألا يُخلط اللبن بالماء.

---

(١) سورة إبراهيم الآية: ٣٨.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١٠.
(٣) سورة الحديد، الآية: ٤.
(٤) سورة يٓس، الآية: ١١.
(٥) سورة الملك، الآيات: ١٢ ـ ١٤.

فقالت لها الأم: إنك في مكان لا يراك فيه عُمر ولا مُنادي عمر. فأجابتها الفتاة مستنكرة مذكرة: لا والله يا أماه، ما كنت لأطيعه في الملا وأعصيه في الخلا، إن كان عُمر لا يرانا، فرب عمر مطَّلِعٌ علينا.

ويُروى أن شاباً غراً، راود فتاة مؤمنة عفيفة عن نفسها وقد أقبل الليل وانتشر الظلام، فتأبت عليه قائلة: «أما تستحي؟»

فقال لها: «وممن أستحي وليس أمامنا إلا الكواكب؟»

فأجابته الفتاة زاجرة مؤدبة: «فأين مكوكبها؟».

* * *

والمراقبة لله من الداخل وفي الأعماق هي التي تُحسن قيادة الأعضاء والأطراف، فلا يكون من الإنسان ما يسوء أو يعاب في تصرفاته أو حركاته؛ ولهذا قال ابن مسروق الطوسي: «من راقب الله في خطرات قلبه، عصمه الله في حركات جوارحه» فكان خيار المتعبدين مثلاً يخجلون من كشف عوراتهم، وهم منفردون، حياءً من الله تعالى، لأنهم يتذكرون أن الله تعالى معهم لا يغيب عنهم ولا ينقطع عن الاطلاع عليهم، فكان لسان حالهم يقول:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت، ولكن قل: عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

* * *

بل إن المراقبه الصادقه لله سبحانه وتعالى هي التي تحدونا أن نستمع إلى هذه المناجاة الذكية في ساحة الطُهور والإيمان. يقول العارف بالله سيدي علي زين العابدين بن الحُسين رضي الله عنهما: اللهم لك قلبي ولساني، وبك نجاتي وأماني، وأنت العالم بسرِّي وإعلاني، فأمت قلبي عن البغضاء، وأصمت لساني عن الفحشاء، وأخلص سريرتي وعلانيتي من علائق الأهواء، واكفني بأمانك عواقب الضراء، واجعل سري معقوداً على مراقبتك، وإعلاني مرافقاً لطاعتك، وهب لي جسماً روحانياً، وقلباً سماوياً، وهمَّة متصلة بك، ويقيناً صادقاً في حبك».

* * *

لقد تكفل هذا الحب بأن يبلغ بالنفس البشرية أقصى ما تتوق إليه من الكمالات والرقيّ الروحي، إذ يصير القلب مليئاً بالصدق والمروءة والنخوة والطهارة والعطف والرأفة والحنوّ على عباد الله، بل على الخلائق جميعاً، حتى الطير والحيوان الأعجم، يعطف عليه يرأف به، ويطوِّف بنا (ابن عربي) أحد أقطاب الصوفيه[1] في هذه المعاني فيقول:

لقد كنت قبل اليوم أُنكر صاحبي ... إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لنيران وكعبة قاصد ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجَّهتْ ... ركائبه فالحب ديني وإيماني

* * *

وحين سأل سفيان الثوري السيدة رابعة العدوية عن حقيقة إيمانها أجابت: ما عبدته خوفاً من ناره، ولا حُباً في جنته فأكون كالأجير السوء، بل عبدته حُبًّا له، وشوقاً إليه وأنشدت:

أحبك حبّين حب الهوى ... وحبًّا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو أهل الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاك

وهي بذاتها السيدة رابعة العدوية تناجي ربها تقول:

ليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إن صحَّ منك الود فالكل هين ... وجميع ما فوق التراب تراب

* * *

ما أصدق الحكمة التي قالها «كونفوشيوس»: «حياتي هي صلاتي، والذي يعيش عيشة صالحة، لا يخاف شيئاً على الإطلاق».

* * *

(١) وفي رأيي أن التصوف كمنهج وطريق حياة لا يصلح إلا للشيوخ أي بعد سن الأربعين وأقل من هذه السن يعتبر طيشاً وتهوراً ومن دخل فيه من الشبان تركه بعد وقت قصير ومن بقي منهم فإنه يتخبط في حماقاته وجهالاته ولا يُرجى خيره.

أنا لا أعتقد أن في الإنسان خلائق شر محضاً، ولكن يوجد من خلائقه ما إذا غلبت عليه وأسيء تصريفها فإنها ربما تؤدي إلى عواقب وخيمة، فإذا سأل سائل: هل يجب إعدامها؟ أجبته: ليس هذا من رأيي لأننا مع تسليم إمكان الوصول إلى هذه الغاية نكون قد خالفنا مقتضى الفطرة مخالفة ظاهرة، وإنما الذي ينبغي علينا عمله هو معارضة تلك الغرائز بمشارب وأذواق أخرى.

* * *

إن الأهواء الفاسدة في الإنسان هي قوى مستبدة يبعثها نموها الفطري أو المُكتسب على أن تملك قياده فتتغلب على ما فيه من ضروب الوجدان أو الأفكار، فمن البديهي أن هذه الأهواء هي التي يجب أن تقاومها التربية، وهذه المقاومة يصح أن تكون على طريقتين: أولاهما الرجوع إلى أنواع التلهية التي تشغل المراهق عنها[1] وتصرف ذهنه إلى غيرها وهذه الطريقة اخترعها الأطباء لعلاج الجنون وسموها التلهية النفسية. والذي يجعلنا متفائلين من استعمال هذه الطريقة في علاج مشكلات الشباب وما يعتوره من الانفعالات، والقلق، كنتيجة لوجود أوقات فراغ لديهم، هو أن الشباب في هذه الحالات جميعها إن لم يكن أغلبها أقرب إلى الجنون أو في حالة جنون. وثانيتهما جعله بمعزل عن البواعث الخارجيه التي تهيّج من غرائزه ما يغلب على الظن أن في تحريكها وبالاً عليه.

* * *

أنت بشر ومقتضى البشرية فيك، أنك تخطىء وتصيب، وهب أنك فارقت شروراً وآثاماً، وأسرفت على نفسك كثيراً وأظلمت الدنيا أمام عينيك وأحسست بأن الأبواب كلها موصدة في وجهك فلا تيأس. المهم أن تبدأ حياتك من جديد على طريق الخير والفضيلة، قال تعالى: ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم**﴾[2]. ويقول الرسول الكريم: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين

---

(١) تنمية المهارات المختلفة لدى الشبان مثل مزاولة الرياضات المختلفة والقراءة والاطلاع والرسم والشعر والموسيقى وتعليم الكومبيوتر وغيرها كثير.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

التوابون». وقوله عليه السلام: «التـائب من الذنب كمن لا ذنب لـه». ويقول المسيـح عليه السـلام: «تعالـوا إليّ يا جميـع المتعبين والمثقلين... احملوا نيري عليكم وتعلموا مني... فتجدوا راحة لنفوسكم. لأن نيري هبة وحملي خفيف»

* * *

القلة فقط.. هم الـذي يستمعون لصـوت العقل.. هؤلاء هم العقـلاء والحكماء والمفكرون وهم قلة نادرة وكثيرون يستمعون لصوت العقل والضمير معاً!!

كـم من ممثلات في عصرنا الحديث كانوا من دعـاة الرذيلة، فـأصبحوا بفضل استماعهم إلى صوت العقل والضمير، يدعون للفضيلة مثلا!!

وكم من عُتاة مجرمين، وقاطعي طرق، كانوا مضرب الأمثال في الإجرام لدى أهلنا في الصعيد الجواني، ثم استيقظ ضميرهم فجأة بعد طول ثُبات، وقد مُثلت قصة أحدهم[1] في التلفزيون، ولا يضر من ذكر اسمه وكان يقـوم بدوره الممثل المعروف نور الشريف، المهم أن الرجل بدأ حياة نظيفة لا تشوبها شائبة من إثم، وأكثر من هذا أنه صار قدوة صالحة لأهل قريته، ولعل كثرة ما اقترفه من المظالم في حق الناس، هي التي جعلته يردد هذه الأبيات وهو يبكي:

لا بـد مـن يـوم مـعـلوم تُـرَدُّ فـيـه الـمـظالـم
أبـيض عـلى كـل مـظلوم أسـود عـلى كـل ظـالـم

إنها التوبة الصادقة بفضل يقظة الضمير والتي تجبُّ ما قبلها.

* * *

أما الشر فاجتهد أن تتركه كله، فليس وراءه خير أبداً، ولن يكون حصاده سوى العاصفة. لا تقترف شراً، فإن الديَّان يقظان «اعمل ما شئت، كما تدين تُدان» وقول المسيح: «بالكيل الذي تكيلون يكال لكم».

* * *

(١) بحثت عن اسمه فوجدته «ابن عروس».

المهم هو أن تبدأ طريقك إلى الفضيلة غير هيَّاب ولا وجل جاعلاً شعارك حكمة فيكتور هوجو: «إني أرى لا أكثر. . . وأؤمن لا أقل. . أمَّا العواقب فشيء لا يدخل في حسابي». وفي ضوء جميع الظروف اختر مسؤلياتك بذكاء، وأولى سمات هذا الذكاء، ألا تستدرج إلى مسؤولية تقوم بين طاقتك وبينها استحالة لا تملك تذليلها.

كان الرسول عليه السلام يقول: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه. قيل: وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: أن يعرّض نفسه لما لا يطيق من العمل، فيعرض له ما لا يطيق من البلاء». ويقول المسيح عليه السلام: «من فيكم ـ وهو يريد أن يبني بُرجاً ـ لا يجلس ليحسب نفقته ويعلم هل لديه ما يلزم لكماله؟».

* * *

ثبِّت نفسك بالقدوة العظمى التي ضربها للناس خيارهم، أنظر: هذا رسول الله يحتضن مسؤوليته في رسوخ أشم ويضع لتهديدات قومه ومناوراتهم حداً فاصلاً ورادعاً من تصميمه، ويترك للدنيا أبلغ الدروس في إيثار الحق، وتحمّل المسؤولية: «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يقضيه الله، أو أهلك دونه»!! وهذا، أخوه المسيح. . يبصر أكثرية قومه. . تتحول إلى خراف ضالة، تحترم الباطل وتمتهن الحق، وتكذب على الله. ويحمل مسؤولية الموقف كله. . وحيثما كان يسير، كانت جثث الهداة قائمة على الصلبان التي أقامها لهم الباطل، تلفحها الشمس والرمال، وتهوي عليها الطيور الجارحة الجائعة. فلا يفتّ في عضده المشهد ولا تستجيب في نفسه ذرة واحدة إلى دواعي التقهقر، ويمضي في ولاء فذ لمسؤوليته وعمله.

* * *

وهذه أخت البشرية «مدام كوري» ترى صرعى العلم يتساقطون أمام ناظريها كالعهن المنفوش، وتلتمع أمام بصيرتها بادرة أمل في كشف الدواء الناجع فتحمل من فورها مسؤولية هذه البادرة كما لو كانت رسالة تُلقى على

عاتقها، ووحياً ينزل من السماء!! فتثابر، وتجتهد، وتعيش مع زوجها في بدروم منزل، ويحيق بتجربتها العلمية فشل تلو فشل ولكنها تثابر، وتحمل مسؤولية لم يكفلها بها سوى ضميرها الحي الباسل، ويذوي عودها تحت وطأة الفقر والسهر والمحاولة.. حتى دقت الساعة التي قال الله لها فيها: «الآن خذي ثوابك بغير حساب» وتفتحت أمامها مغاليق السر، ووضعت يدها على «الراديوم»، وهو واحد من أعظم الاكتشافات العلمية في العصر الحديث! ورفضت في إصرار رُهباني أن تُسخِّر كشفها، وجُهدها لسماسرة الشقاء حين حاولوا أن تأذن لهم بتحويل الحيز الذي كشفته إلى أداة قتال تقتل وتبيد، فتكسب من ورائها الملايين. ورفضت أن تقايض على الفضيلة بشيء، فصارت مثلاً للخير والفضيلة، وكان هذا جواز مرورها إلى سماوات العظمة، وكتب التاريخ الإنساني اسمها بأحرف من نور بين عظماء الخالدين.

* * *

وكان في وطننا هذا... رجل معه من المال والجاه ما لا يجد معه من وقته فراغاً - أي فراغ - يملؤه بعمل جاد. فضلاً عن أن يملأه بتضحيات تزهو على معظم ما عرف البشر من تضحيات..!

ألفى أمته تسام الخسف والذل من المستعمر الغاشم، فخلع جاهه، وجعله لها دثاراً، وجمع ماله، وجعله لقضيتها فدية.. وترك القصر ودخل السجن.. ثم قضى حياته محروماً من كل راحه.. بعيداً من كل مرفأ.. حتى مات غريباً لا يجد ثمن الدواء!! أية شجاعة منقطعة النظير، حمل بها «محمد فريد» مسؤولياته.. هذا الرجل الذي لا تكاد عظمته تترك إلى جوارها مكاناً لمنافس أو مزاحم.

* * *

من أجل هذا أقول لك: إذا أردت أن تظفر بكل نعيم ومُتعة فلا تقايض على الفضيلة بشيء، فامض في حياتك غير هيّاب ولا وجل ولا تخش الأخطاء، فلا مهرب لإنسان من الخطأ.. وذلك لا يعني أن تستسلم للأخطاء.. أو توغل فيها بغير حساب. إذن ما عليك أن تفعل؟

هوذا.. «ارتكب أنظف الأخطاء» اجعل هذه العبارة إحدى بل أهم قواعد سلوكك تنج من كثير مما يسوءك التورط فيه.

* * *

إذا كان لا بد من الخطأ، فلتكن أخطاؤك كريمة نظيفة، فإن الأخطاء النظيفة تحمل إمكانية التحول والتعلية. ولا أحسبك بحاجة إلى أن أبين لك: ما هو الخطأ النظيف، فالحلال بيِّن والحرام بيِّن.

* * *

قال فيلسوف فرنسي: «الذين يجعلون الرذيلة محبوبة، خير من الذين يلوثون الفضيلة» فمن هم الذي يجعلون الرذيلة محبوبة؟ إنهم الذين لا يصرون عليها، ولا يسعون إليها وإذا غُلبوا على أمرهم فيها، حوّلوها إلى خطأ نظيف، لا يخلف وراءه مرارة الندم ولا ضراوة الإدمان.

* * *

إنك إنسان له شهواته، ورغائبه.. ومعه أيضاً إرادته التي تقهر الصعاب، وتصنع المعجزات.. وسوف تنجح نجاحاً كبيراً في حياتك الخُلُقيه إذا توخيت القصد والاعتدال.. فلا تَمِل كل الميل إلى الإحجام، ولا تمل كل الميل إلى الإفراط، لا تجعل القهر والإرغام سبيلك إلى تقويم نفسك.. بل اجعل الحيلة والذكاء، هما السبيل، وفي الحياة الأخلاقية بالذات، تكون الطفرة، والتزمُّت ضلالاً وجهداً ضائعاً. فإذا أخذت نفسك إلى الفضيلة بغير هوادة بما فاتك ذات يوم، وانقذفت صوب الرذيلة بلا هوادة بنفس القوة.. وضد الاتجاه، فاحذر قمع نفسك.

* * *

إن الرسول عليه الصلاة والسلام وهو صاحب دين من شأنه أن يطالب بمزيد من الفضيلة والتقوى.. كان دائم التذكير بهذه الوصية: «إن هذا الدين متين، فأوغل به برفق، فإن المُنْبَتَّ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى».

العب.. وامرح.. وتهلل، واعلم أن أدنى مستوياتك الخلقية، تتضمن أعلى ما ترجو لنفسك من مستويات، تماماً كما تتضمن البذرة الشجرة، وكما

يكمن في الطفل الرجل، فكذلك مستواك الأعلى، ينبثق من المستوى الأدنى شيئاً فشيئاً.

* * *

إنك واحد من النوع الذي اتخذه الله خليفة له على كوكبنا الأرض، من أجل هذا، أمدّك بقوى تحطم كل يأس.. وطاقات تجاوز كل عجز فلا تظن أنك إذا ذللت، أو حتى واقعت خطأ فادحاً، أنك انتهيت، فهيهات لمثلك أن ينتهي. إن القدرة التي يحقق بها نوعك الإنساني هذه الانتصارات العلمية الباهرة.. معه مثلها أو أكثر منها، ليحقق بها انتصارات أخلاقية أبعد منالاً وشأواً.

* * *

لا تدع قواك تتحطم تحت وطأة الشعور الضاري بالإثم والندم، فإنك وأنت «حُطام» لا تستطيع استرداد الأرض التي فقدتها.. لكنك وأنت «جميم» قادر على استردادها وامتلاك سواها.. يقول تولستوي: «مما يفزع المرء أننا كالأطفال نفك أجزاء الساعة، ونجعل منها ألعوبة. ثم ندهش بعد هذا، لأن الساعة لا تدور..!!» فنحن نصنع بأنفسنا هذا تماماً، حين نحطمها بالندم، نجلل تماسكها بالكبت الأعمى، أو الإفراط الأهوج، ونبعثر قواها في اجترار الشعور بالخطيئة، وبالهزيمة.. ثم ننتظر منها بعد هذا أن تعمل، وتدور!! احتفظ بطمأنينة نفسك وثباتها، وتماسك قواها، إذا أردت للساعة أن تدور.

إن مسؤوليتك الأخلاقية تتمثل في تقديرك لوقع الخطأ وقدرتك على إصلاحه.. وإدراكك لقيمة الفضيلة وسعيك لإحرازها.. أما موقفك من الخطأ، تقديراً له، وقدرة عليه، ففي السطور السالفة حظ من التبيان أحسبه كافياً.

* * *

أما الفضيلة، فهي إذ تبدأ من الإدراك السديد لفلسفة الخطأ وحقيقته، فإنها تمضي بعد ذلك معتمدة على ذكاء التربية وذكاء الإرادة. ولعل حكمة المسيح القائلة: «لن تدخلوا ملكوت الله حتى تولدوا من فوق» لعلها كانت تشير ـ فيما تشير ـ إلى هذه الحقيقة الجلية.

فأنت الآن في سنك الناضجة، مسؤول عن ولادة جديدة لنفسك واعلم أن لله عباداً إذا أرادوا أراد فاحمل إرادتك وزودها بالذكاء وحُسن التقدير وامض في طريق الخير والفضيلة.

وحسبك جزاء عليها توفيقك إليها.

هناك حكمة جزيلة تقول: «أكثر الناس جهلاً بالخير، أعلاهم صوتاً في طلب الأجر عليه».

إذا فعلت الفضيلة ابتغاء شيء سواها، خسرتها وإذا فعلتها ابتغاء ذاتها ربحتها. على أن ثواب الفضيلة الذي ترجوه من الناس، مدركك لا محالة، وحتى إذا قسم لك أن تكون فاضلاً بين قوم يجحدون الخير، ويسخرون من كل سموّ يُعجزهم نواله، فسيكون هذا الجحود منطوياً على أعظم مثوبة..

* * *

لأن معناه، أنك ضياء رفعه الله وسط الظلمة، وقدوة هيأها الله للمتخلفين.

إن الفضيلة ربح لا يكتنفه خسران أبداً فامض إليها سعيداً..

* لا تضق بالخطأ.. واجتهد أن يكون خطؤك نظيفاً..

* إذا لم تستطع إصلاح كل أخطائك فإنك تستطيع اصلاح بعضها.. فابدأ بإصلاح ما تستطيع.

* لا تضطهد غرائزك، ولا تكبت حاجات نفسك، بل طعِّمها بنوازع الاستقامة والخير، ودعها تعمل.

* اكتشف ما معك من فضائل، وركز عليها وتعهد ضعيفها حتى ينمو، واعلم أن كل فضيلة تنميها وتكتسبها إنما تشكل حلقة باهرة في سلسلة انتصاراتك على ضعفك.

* تجنَّب الطفرة، ودَعْ حياتك الأخلاقية تكشف نفسها، وتحقق ذاتها خلال نمو طبيعي، ولا تتطرف في طلب الفضيلة تطرفاً يردك ـ مكرهاً ـ إلى الاتجاه المضاد..

* ابحث عن المواقف السليمه دائماً، والتزمها..

* اجعل غرضك الأخلاقي أن تكون «فاضلاً» لا «محترف» فضيلة، وقد ضربنا الأمثلة للفضيلة، وإليك هذا المثال عن محترف الفضيلة: عاقب والد ابناً صغيراً له لم يتجاوز الخامسة من عمره على أكذوبة قالها أمام اخوته، ولم يكد ينتهي من عقابه حتى دخل إليه خادمه يخبره بأن زائراً ثقيلاً ينتظره في الخارج!

فقال له ذلك الرجل الوقور: «أخبره بأني لست هُنا».

فيا له من درس يستفيد الأبناء منه الصدق والإخلاص؟!!

وقاك الله يا بني شر احتراف الفضيلة، وشر مُحترفيها.

* تصرف دائماً، كما لو كان سواك، سيصير قدوة لمن معك، وللأجيال القادمة بعدك.

* لا تنتظر على الفضيلة مثوبة، خيراً من الفضيلة نفسها.

والآن أسأل الله لي ولك التوفيق والسداد.

* * *

الفصل الرابع

كلمات مضيئة على طريق الخير والجمال



كلمات مضيئة على طريق الخير والجمال

والهدف منها الارتقاء بالضمير حتى يصل إلى عليـائه على طـريق الحق والخيـر والجمال، ولنـا في رسول الله ﷺ الأسـوة الحسنة والنـور الهادي إلى الصراط المستقيم فقد جـاء للناس بشيـراً ونذيـراً يقول لهـم: «إنمـا أنا رحمـة مُهداة».

ومحمد رسول الله، من أفذاذ الخلق الذين حلَّقوا في أعلي المستويـات دون أن يفقدوا ثبات رشدهم.. وحين كانت رأسه في السماء، ظلَّت قدماه على الأرض. وهكذا على الرغم مما رأى من آيات ربه الكبرى، لا نجد له قط تلك الشـطحـات الـوجـدانيـة، أو تلك الغيبـوبــة الـروحيــة التي يـدعيهــا بعض المتحذلقين.. بل هناك دائماً، الحكمة الصادقة، والتجربـة الذكيـة اليقظة، والفطنة الرشيدة، تعبر عن نفسها في جوامع الكلم الطيب الواضح المبين.

* * *

أي بنيّ: خطر ببالي شيء هام غاب عني وعنك، وهو أن نبحث ونجدّ في البحث عن أعداء الفضيلة فلا نقربهم، ونتقي شرهم.

وبينما أنا مشغول بالبحث والتنقيب، التقيت بها وجهاً لوجه.

قلت لها: حدثيني.

قالت: المرء يُعرف بأعدائه قبل أصدقائه.

أما أصدقائي فقد عرفتهم وهم الحقُ والخير والجمال، .

وتريد أن تعرف أعدائي؟
قلت: نعم، وأخشى أن يُساء الظن بي.

قالت: فعلت خيراً، ألم تسمع قول سقراط: «لا فضيلة بلا معرفة» إذن فالجهل من أعدائي!!

قلت: نعم.

قالت: أما باقي أعدائي فيأتي في مقدمتهم، عدوي اللدود.. ألا وهو الكذب.. فاحذره.

* * *

سأل الصحابة رسول الله ﷺ:

يا رسول الله، أيكون المؤمن جباناً؟

قال: نعم.

وعادوا يسألونه: أفيكون بخيلاً؟
قال: نعم. وسألوه للمرة الثالثة: أفيكون كذاباً..؟
قال: لا.

* * *

والكذب من أشد البلايا والرزايا فهو يفتك بالآمنين، لأنه سريع النمو، سريع الانتشار ويكشف الرسول عن هذا فيقول: «لا يزال العبد يكذب، ويتحرى الكذب فينكت في قلبه نكتة سوداء، حتى يسودّ قلبه».

ما أفدح العقوبة التي تحل بالكاذب..!!

ذلك أن القلب الأسود لا يعجز عن رؤية غيره وحسب. بل وعن رؤية نفسه أيضاً.. فهو لا يصدق أحداً من الناس، ولا يصدقه أحد.. ويستولي عليه الشك فيحيل حياته جحيماً، ويصير قلبه الذي أحاله الكذب إلى السواد فاحماً.. يستحيل كالمرآة التي علاها الصدأ، وفقدت كل صفائها، فلم يعد ينعكس عليها شيء من مشاهد الحياة.

* * *

ويوجهنا الرسول الكريم، التوجيه الأسمى في تربية فلذات أكبادنا. . .
فينفرنا من الكذب نفوراً يستحيل معه أي تسامح تجاهه. . حتى المزحة العابرة إذا انطوت على يسير من الكذب تصير كذباً.

يقول عبد الله بن عامر: «دعتني أمي يوماً، ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا. فقالت: ها. . تعال، أعطك. . فقال رسول الله لها: ما أردت أن تعطيه. . ؟ فقالت: أردت أن أعطيه تمراً. . فقال لها: أما إنك لو لم تعطه شيئاً، كُتِبت عليك كذبة. . !!».

* * *

ونستطيع أن نبصر مدى بشاعة الاشاعة الكاذبة في هذا الحديث الذي يصورها لنا أذكى تصوير.

يقول عليه الصلاة السلام:
«إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل فيأتي القوم، فيحدثهم الكذب، فيتفرقون، فيقول الرجل منهم سمعت رجلاً أعرف وجهه، ولا أعرف اسمه يحدث كذا، وكذا. . .».

نتناقلها جميعاً، دون أن نعرف مصدرها، وحقيقتها. .وكل حجتنا معها هي «سمعت». . . الشيطان. . . نرى آثاره الرديئة الوخيمة، دون أن نعرفه أو نراه. . بل وربما دون أن يكون له وجود مادي على الإطلاق.

* * *

والثرثرة تشكل خطراً على فضيلة الصدق، لأنها تستدرج صاحبها إلى مزالق يفقد فيها توازنه وثباته وصدقه.

وهنا يلامس الرسول صميم هذه الزاوية التائهة من زوايا الرذيلة الخطرة ـ . . رذيلة الكذب فينهى عن الثرثرة، في كلمات مفكرة حكيمة ـ ويقول:

«كفى المرء كذباً، أن يحدث بكل ما سمع ويقول: احفظ عليك لسانك».

ويقول: هل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم».

* * *

وإذا كان الكذب في صوره العادية الدنيا، يحظى بكل هذه الكراهية؛ فكيف هو في صوره الأكثر خطراً؟

كيف هو، حين يكون تزويراً لحقائق الحياة، وتضليلاً للوعي البشري؟؟

لنصغ إلى محمد يقول:

«يكون في آخر أمتي أناس دجّالون كذّابون، يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يضلونكم ولا يفتنونكم».

ليس كل ما لم نسمعه نحن، ولم يسمعه آباؤنا قبلنا يكون كذباً... وإلا استحال سير الزمن وسير المعرفة.

وإنما نضع هذه العبارة مقياساً صحيحاً للفطرة الصادقة للحقيقة، فكل من يحاول تزوير هذه الفطرة، وتعويقها عن طريق بث الكذب والافتعال إنما يلعب دور الكذاب الأشر، والدجّال الخطر وقانا الله شرهما.

* * *

ذات يوم، ذهب رجل إلى الرسول ﷺ يسأله أن يدله على فضيلة واحدة تظفره برضوان الله فيجيبه الرسول: لا تكذب...

وينطلق صاحبنا نشوان فرحاً.. فما أيسر هذا الواجب؟ الذي سينال به خير الآخرة دون أن يفقد شيئاً من شهوات الدنيا..

ولكنه لم يلبث حتى اكتشف أنه قد حَمَّل نفسه كل تبعات الوجود الصحيح، حين حمّلها مسؤولية الصدق وحده...

فماذا يفعل إذا هو ارتكب إثماً؟ حينئذ سأله الرسول؛ إن أجاب صادقاً، افتضح إثمه.. وإن أجاب كاذباً، أخلَّ بعهده ووعده.

وهكذا، كان أخذه بالصدق سبيلاً إلى التفوق على جميع نواحي ضعفه في الحياة.

هذه هي عظمة الصدق.. إنه يرفعنا فوق مستوى الضعف فينا.

ولكن حياتنا الإنسانية المركبة، قد تضطر الإنسان أحياناً أن يقول ما ليس صدقاً، ولكنه أيضاً ليس كذباً، وقد أشار الرسول عليه السلام إلى مثل هذه الحالات النادرة بقوله:

«ليس الكذاب، الذي يصلح بين اثنين فيقول خيراً. . أو يُمنِّي خيراً. .

ويسأله رجل قائلاً: يا رسول الله: أكذب امرأتي. فيجيبه الرسول: لا خير في الكذب.

يقول الرجل: إني أعِدُها، وأقول لها. .

فيجيبه عليه السلام: لا جُناح عليك.

* * *

وكفى بالكذب إثماً أن يكون أداة من أدوات النفاق، ويرجع تبرم أفراد المجتمع من ظاهرة النفاق، لإن النفاق هو تزييف لعاطفة إنسانية سامية، وهو الحب المقترن بالاحترام، ويتمثل خطر النفاق على المجتمع، في أنه إذا ساد النفاق والتزلف في المجتمع، كان معنى هذا أن يمتلئ جهاز الدولة في الأعمال والوظائف بمن لهم قدرات عليا في النفاق والتزلف، فيتضاءل الحب الحقيقي في قلوب الناس، وتمتلئ النفوس باللامبالاة، ولا سيما بالنسبة للأكفاء من أفراد المجتمع الذين يستنكفون ظاهرة النفاق الاجتماعي، ويرون أن التفوق وحده هو الحافز إلى التقدم والنجاح. فإذا وجد هؤلاء الأكفاء أن الجو الذي يحيط بهم مُسمَّم بالنفاق، وأن من هم دونهم يحظون بالمراكز المرموقة ويتركون لهم الأعمال التي هي دون قدراتهم، فتضطرم نفوس الأكفاء باللامبالاة وتضعف عزيمتهم للعمل.

والمنافق صياد دنيء ملتو لا أخلاق له فهو يريد أن يحظى بأعظم المراكز دون بذل أي مجهود أو إظهار كفاءة، وكل ما يتقنه المنافق هي الكلمات الناعمة الملساء، الضحكات الصفراء، والاحترامات الزائفة، والانحناءات القوية وغيرها من وسائل النفاق وقانا الله شره.

* * *

والرسول عليه السلام يبرز لنا في كلمات قليلة الصورة القاتمة للمنافق، وما يحمله من معاول الهدم والتخريب للمجتمع وأفراده الآمنين.

يقول: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

ولعل سائلاً يسأل: ماذا عساي أن أفعل إذا ابتليت برئيس جائر في العمل؟ ألا أكون مضطراً إلى نفاقة، اتقاء لأذيته..

ونقول: كلا. فإذا عُرفت فيك هذه الصفة المتدنِّية عند رئيسك، زادت سطوته عليك، وكنت مدعاة لسخريته بين زملائك، فيزداد احتقارهم لك وتندُّرهم عليك، ومثل هذا الإنسان التافه لا قيمة له ولا خير في حياته.

* * *

وخير لك يا بني في مثل هذه الأمور أن تلجأ إلى الحيلة والذكاء، وأن تمارس مسؤوليتك في صمت ومن الله التوفيق.

واخشى أن تملَّ حديثى فسأروي لك هذه القصة:

كان الدكتاتور يرقد في خيمة الأكسجين وهو يوشك أن يودِّع حياته.. وقد جلس إلى جوار فراشه نائبه في الحكم يذرف الدموع التي تنحدر مراراً على وجهه.. وربت الدكتاتور على يد مساعده في ضعف وهمس يقول: لا تحزن أيها الرفيق. أريد أن أقول لك: اننى مكافئك على وفائك، وولائك لي، سأترك كل أموالي، وسيارتي وطائرتي وأملاكي وسأترك لك كل شيء.

فقال نائب الدكتاتور وهو يبكي: شكراً لك. شكراً لك لقد كنت بالغ الطيبة بالنسبة لي، ولست أدري ما الذي أستطيع أن أفعله من أجلك؟

فرفع الدكتاتور المحتضر نفسه قليلاً وقال: هناك شيئاً تستطيعه.. أرجو فقط أن ترفع قدمك من فوق أنبوبة الأكسجين...

* * *

الصدق مع النفس يعني أن يعرف المرء قدْر نفسه، ويعني التفوق على خداعها. وعندئد يبرأ الإنسان من آفة الكِبْر التي تجعله يرى نفسه فوق الحق وفوق الصدق، والتي يقول الرسول عن أصحابها:

«لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يُكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم».

كذلك يبرأ الرسول من آفة الجُبْن التي تجعل صاحبها يهرب من الحق، ويتجنب تبعات الصدق. . تلك الآفة التي يدعو الرسول إلى مقاومتها فيقول:

«ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا عَلِمُه».

إن أجمل ما في فضيلة الصدق أنها مرتبطة بسكينة النفس والتي نسعى جميعاً نحوها، ونعمل دائبين لإدراكها: يقول الرسول الكريم:
«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة».

* * *

وفي كل أمورك يعلمنا الرسول عليه السلام: «استعن بالله، ولا تعجز».
تقدم ولا تتهيَّب، ولا تخش شيئاً ما دمت تحمل مسؤولياتك بذكاء، يقول الرسول عليه السلام:

«ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. . ولو اجتمع الناس على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك».
لا تكن متردداً، فإن التردد يشل القدرة على الحسم والاختيار، يقول الرسول عليه السلام:
«إذا عزمت، فتوكل. . .»
ومن العجز أيضاً الهروب من تبعات التقدم والزحف إلى الوراء. . . تخلّياً عن واجبات الغد.
يقول الرسول عليه الصلاة والسلام:
«يذاد أناس من أمتي يوم القيامة عن الحوض، فأنهض لأشفع لهم. . فيقول الله لي. . لا تفعل. إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. . إنهم كانوا يمشون القهقرى على أعقابهم».

* * *

إن الشيطان هو الرمز إلى كل رذيلة. . والرسول ينهى عن كل كلمة «لو» وينهى عن الندم المثّبط، لأنه يفتح الباب لكافة الرذائل المرتبطة به من يأس، وتشاؤم وقعود عن العمل. .

«لا تقل: «لو» . . . فإن «لو» تفتح عمل الشيطان» وفي التشاؤم يقول:

«الطيرة شرك. . الطيرة شرك. . الطيرة شرك» والطيرة هي التشاؤم.

ويقول أيضاً:

«لا عدوى ولا طيرة. . . ويعجبني الفأل. .» سأله أصحابه: وما الفأل؟ فأجابهم: «كلمة طيبة».

* * *

إن الحياة مقدَّسة. . وكل إيلام لكائن حي، أياً كان ذلك الكائن، امتهان لحُرمة الحياة.

ويضرب الرسول الكريم لذلك مثلاً يقول:

«دخلت امرأة النار في هرّة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها».

* * *

ويروي ابن مسعود هذه الواقعة:

«كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرَة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحُمرة تعرش.

فجاء النبي ﷺ: فقال: من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها».

ويقول الرسول أيضاً: «بينما بَغْي تسير إذ رأت كلباً يلهث من الظمأ، فخلعت موقها، وأدلته في بئر وسقته، فشكر الله لها».

* * *

إن تخفيف الآلام فيه إسعاد للآخرين وبقاء الحياة. . . أما الألم فهو وجه الشقاء، ويُذري بالحياة حتى في صورها الدنيا.

لهذا نهى رسول الله ﷺ عن التمثيل بالحيوان عند ذبحه. . يقول:

«إذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليُرح أحدكم ذبيحته، وليحدَّ شفرته»

* * *

إن أقسى أنواع الألم، وأشدها مرارة على النفس هـو أن يكون الإنسـان مصدر أنين دائم وظلم، لأخيه الإنسان، تُرى كيف تبلغ مقاومة الـرسول عليـه السلام للألم الذي يوجّه إلى قمة هذه الحياة إلى الإنسـان.. ها هـو ذا يتكلم فيقول:

«إن الله يعذّب الذين يعذبون الناس في الدنيا» مهما صغر هذا الإيلام، ولو لطمة عابرة. «مـن لطـم غلاماً، فإن كفارته أن يعتقه» ويقول ابن مسعود:

«كنت أضرب غلاماً لي بالسوط، فسمعت صوتاً من خلفي يقول: أعلم أبا مسعود، فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول:

«أعلم أبـا مسعود أن الله أقـدر عليك منـك على هـذا الغـلام.. فسقط السوط من يدي من هيبته.. وقلت: يا رسول الله، هو حُـر لوجـه الله، فقال: «أما إنه لو لم تفعل للفحتك النار».

أجل إن نار القـصـاص تنـتظـر على شـوق جميع الـذين يزيـدون من متاعب الناس، ويُدخلون على حياتهم الآلام والفجائع. ويقول الرسول:

«خيركم من يُرجى خيره، ويؤمن شره، وشركم من لا يُرجى خيـره، ولا يؤمن شره».

* * *

وإذا جاز لنا أن نقـاوم الألم الجسماني.. فمن البـديهي والمسلَّم به أن نقاوم الألـم الاجتماعي ودواعيـه، ما أسعفتنـا الظروف.. ومنهـا: الاستغلال، والاحتكار، والانانية، والاستعلاء،.. الـربا ـ مثـلاً ـ استغلال لحـاجة النـاس يقول النبي ﷺ: «لعن الله آكل الربا وموكله».

* * *

والاحتكار، إزجاء لأزمات الناس، فيقول الرسول فيه:

«بئس العبد المحتكر ـ إن أَرْخَصَ الله تعالى الأسعار حزن، وإن أغلاها فرح»

من احتكر طعاماً أربعين يوماً، يريد به الغلاء، فقد برئ من الله تعالى، وبرئ الله تعالى منه. . .

كما تروى عنه ﷺ كلمات تناهت في القوة: «يُحشر الحاكرون وقتلة الأنفس في درجة واحدة. ومن دخل في شيء من سعر - الناس - يُغليه عليهم كان حقاً على الله أن يعذبه. . .»

واستغلال الجهد البشري محظور: «أعطوا الأجير أجره، قبل أن يجف عرقه».

والظلم بكافة صنُوفه جريمة ضد الإنسان. «إن الله يُملي للظالم، فإذا أخذه لم يُفلت. . .»

* * *

ومع إمرسون، في فكره اللّماح الودود، وهو يصوّر إيمانه بالله وبالجزاء تصويراً جميلاً فيقول: «إن وجود الله في كلٍ مكان، معناه أن الله يُعيد ظهوره في كل ذرّة. . كما أن قيمة الكون تجاهد أن تُلقي بنفسها في كل قطرة. والعدالة الكاملة تقيم ميزانها في جميع أجزاء الحياة. . والله مستعد دائماً بأحكامه. . .

أن الدنيا تشبه جدول الضرب في الحساب، أو تشبه معادلة رياضية، إذا قلبتها كيف شئت وازنت نفسها. . كل جريمة تجد جزاءها. . كل فضيلة تكافأ. . كل خطأ يجازى في صمت، وبالتأكيد.

العين بالعين، والسن بالسن، وخطوة بخطوة، وحب بحب . . . أعط تُعط. . من يروِ يَرتو. . . ومن لا يعمل، لا يأكل . . .

وإذا طوَّقت عنق عبد بسلسلة، فإن طرفها الآخر سيُطوق عنقك لا محالة. . .

ليس في الدنيا الواسعة مكان يختفي فيه إنسان سافل. . . وإن ارتكبت جُرماً، وجدت الأرض كأنها مصنوعة من زجاج. . إنك تستطيع أن تقذف حجارة إلى أعلى . . . ولكنها بعد لحظة، ستعود إلى الأرض. .

ومهما يكن من السرقات التي لم نلق جزاءها. . والأكاذيب التي لم يُكشف خِبئُها؛ فإن العدالة لا بد أن تسود. . فمن مزايا الحق، أنه يجعل نفسه مصدَّقاً. . »

* * *

والكِبْر فيه إهانة للناس، والمتكبرون شرار حمقى.

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «يُحْشَر المتكبرون أمثال الذَّر، يغشاهم الذل من كل مكان. لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يُكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم»

* * *

الغُرور: يبدأ بالإعجاب الذاتي وهو واحد من العيوب التي تصيب المخلوق البشري، وهذا الإعجاب أو التركيز الذاتي عند الإنسان يولد دائماً الغرور في نفسه، وليس هناك شخص أو قبيلة أو طائفة إلا وتعتقد في نفسها أنها العنصر البشري الممتاز، وهذا الزيف سرعان ما نكشفه عندما تكون الحالة حالة شخص آخر أو دولة أخرى يملأها الغرور.

ونستطيع أن نتصور الفرد المغرور بإنسان يحملق في نفسه في المرآة. فلا يرى غير نفسه، وفي هذه الدائرة المفرغة يعيش، فلا يرى من حوله، فتصبح أفكاره عن نفسه وعن الآخرين خاطئة.

وتركيز المغرور على نفسه يضخم كل عمل يؤديه، فيدّعي عظمة أعماله ومواهبه، فهو يشبه البالون الذي امتلأ بالهواء الفاسد، ثم يزداد عليه ضغط الهواء الفاسد، فينفجر، ويسقط على الأرض فتدوسه الأقدام.

وفي القرآن الكريم تصوير للنهاية الأليمة التي تحيق بالمغرورين وعادة ما تنتهي بهلاكهم. . . فغرق فرعون وجنوده في اليمّ[1]، فكانوا من الغارقين، وأهلك الله قارون فخسف به وبداره الأرض حتى سوّيت بالتراب، فلم يعد له أثر على وجه البسيطة.

* * *

---

(١) اليمّ: البحر.

وهكذا انتهى غرور تفوق ما كان يسميه الألمان سموّ الجنس الآري، وكاد بغروره أن يمسح بلاده من على خريطة العالم، واليوم تتجه إسرائيل هذا الاتجاه المشؤوم، بادعاء التعالي على غيرها من الأقطار وسموّ عنصرها على العالمين، واعتقادها بامتياز العناصر الصهيونية، وأنهم قد خُلقوا من طينة غير طينة البشر، وأنهم شعب الله المختار، يقول الحاخام اليهودي باربانيل: «الشعب المختار فقط يستحق الحياة الأبدية، وأما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير»!!

وثقة الإنسان بتفكيره، وغروره بعقله أمر واضح ونلاحظ ذلك عندما يحتدّ الجدل بين شخصين، ويعجز أحدهما عن إقناع الآخر. فلا يجد مخرجاً إلا أن يرميه بالغباوة وبطء الفهم، حتى عندما يُصرّح أحدهما بأنه غبي، فإن تصريحه هذا ضرب من الأثبات في صورة النفي.

* * *

والديكتاتور. . رجل ضيق الأفق. . فمهما بلغ من حدّة الذكاء، فإن ذكاءه لا يتساوى مع مجموع ذكاء الكل. ولكن الغرور يصوّر له ذلك وأنه قادر على كل شيء فيكون حكمه استبدادياً بغيضاً، سرعان ما يقضي عليه بالزوال. .

يقول الفيلسوف برتراند راسل: «مصيبة العالم أن الأغنياء شديدو الثقة بأنفسهم إلى درجة الغرور. أما الأذكياء فتملؤهم الشكوك».

* * *

* كان أثنان من الأصدقاء يتحدثان عن أحد أصدقائهم ممن اشتهروا بغرورهم البالغ، فقال أحدهم للآخر:

لقد سمعت أنه قد بدأ يغيّر عقيدته فتساءل الآخر قائلاً: ترى أنه لم يؤمن أنه إله؟

* * *

التعايش السلمي مع أهل الكتاب

لقد بلغ التعايش السلمي مع أهل الكتاب أبعد مداه. . فقد أمرنا الحق تبارك وتعالى أن لا نجادلهم إلا بالتي هي أحسن قال تعالى: ﴿**ولا تجادلوا أهل**

الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾[1]، وأن يكـون لهم مالنـا وعليهم ما علينـا، وإذا تحاكموا إلينا حكمنا بالعدل وفق ما أنزل الله، ولو كان ذلك ضد المسلمين، فلا يحل لنا تعصّب ديني ينحرف بنا إلى إنصاف مسلم بالباطل على كتابي صاحب حق. وقد سمح لنا الإسلام، ديننا الحنيف، بالتزوج منهم، ونهانا عن إكراههم على الدين ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ﴾.

جاء رجل أنصاري من بني سالم بن عوف يُخبر رسـول الله ﷺ، أن له ولدين اعتنقا المسيحية قبل مبعثه ﷺ، وأنهما قدما عليه بعد طول غياب، وأنه أخبرهما بمبعثه ﷺ، وطلب منهما أن يؤمنا به كما آمن، ولكنهما أصرًا على ما هما عليه، وكان معه ولداه أثناء حديثه مع رسول الله، فـأنزل الله تعـالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبيَّن الرشد من الغيّ﴾[2]، فأمره الرسول أن يدعهما وشأنهما، وإن لا يُكرهما على الإسلام فخلىَّ سبيلهما.

* * *

ومن الحقائق التاريخيه أن النبي ﷺ أعطى لأهل نجران المسيحية بعض مسجده ليقيموا فيه شعائرهم الدينية أثناء إقامتهم بالمدينة.

* * *

وعدلنا فيهم ورحمتنا بهم أبعد الغايات، حتى قال النبي ﷺ: «من آذى ذمياً فقد آذاني» وعلى هـذا المنهج سـار أمراؤنـا وحكامنـا الصالحـون، فهذا عمر بن الخطاب ينصف مصرياً من ابن عمرو بن العاص أمير مصر لأنه ضربه، ولم تحمه إمارة أبيه من العقوبة، فقد استدعاهما في موسم الحـج وحاكم ابن عمرو على ضربه المصري، حتى إذا اتضح أنه ضاربه أمر المصري أن يضربه بمشهد من حجاج بيت الله الحرام، فلما نال حقه، تـوجه أمير المؤمنين عمر بخـطابه التـاريخي إلى عمرو بن العـاص وابنه الجـاني، وقـال لهمـا حكمتـه المشهورة: «متى استعبدتم الناس.. وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً..»؟؟؟!!!

* * *

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

وجاء في كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة المسيحين ما يلي: «وجعلت لهم: أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الإسلام، فإن خرجوا إلى غير دار الإسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم».

فهل هناك كلمات مضيئة على طريق الكفاية الاجتماعية لمن خالفنا في الدين.. أقوى وأقدر من هذه الكلمات في لمّ شمل المجتمع وترسيخ دعائم الوحدة الوطنية بين أفراده.

ولما فتح عمرو بن العاص مصر رأى الأقباط معه ما لم يروا من الرومان من حُسن المعاملة والإكرام، فإنه لما رأى البطريرك (بنيامين) أبعد عن مكانه في عهد الرومانيين، استدعاه وأعاده إلى عمله، وأعطاه عشرة آلاف دينار ليبني بها كنيسته، ووفّر للأقباط الأمن والطمأنينة على دينهم وأموالهم وممتلكاتهم، وعاملهم كما يُعامل المسلمين، عملاً بقوله ﷺ: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» وقوله: «استوصوا بأقباط مصر خيراً، فإن لكم فيهم نسباً وصهراً».

* * *

وهكذا جرى الأمر بين المسلمين والأقباط منذ الفتح الإسلامي إلى اليوم، ولقد عشنا متحابين متعاونين، مدى تلك الأحقاب والدهور الغابرة، لا يمارس أحد منا ضغطاً غير مشروع أو أسلوباً غير كريم، في التأثير على من يعتنق ديناً غير دينه ليظفر به، فغير معقول أن ترجح كفة الميزان لإحدى الطائفتين بأفراد لم يصلوا إليه بالفكر الحر، والسياحة الطويلة بين البراهين والمبادىء، والاقتناع العميق في أعماق النفس والروح، فإن من يعتنق ديناً لغرض، لا يلبث أن يتخلى عنه لغرض آخر.

* * *

فخير لنا جميعاً أن نترك الناس أحراراً دون تأثير غير مشروع عليهم، وأن نعود إلى ما كنا عليه من محبة وتعاون سراً وعلناً، فإن ذلك خيرٌ لنا ومكسب كبير للوطن الذي نعيش على أرضه.

كم رأينـا وسمعنا من التعـاون الصادق بين المسلمين والأقبـاط في بنـاء المساجد والكنائس؟

فحينما يبني المسلمون مساجدهم يساهم المسيحيون في بنائها، وحينما يبني المسيحيون كنائسهم يساهم المسلمون في بنائهـا.

* * *

لقد أدركت أمتنا بوعيها الممتاز، أن وحدتها الوطنية بين جناحي الأمـة، مسلمين ومسحيين هي سفينة النجاة وأن الله قد كتب لها السـلامة بسبب هـذه الوحدة التي عجز الأعداء منذ القدم عن تحطيمها.

* * *

فحين الاحتـلال البـريـطاني لبـلادنـا، أراد الإنجليـز تـطبيق قـاعـدتهم المشهورة ـ فرِّق تسُد ـ فجعلوا يوغرون صدور كل فريق من المسلمين والأقباط ضد الآخر، وفعلوا كل ممكن في ذلك ففشلوا، فقد تنبه الجميع لخطر الفرقة والخلاف، فطرحوا سعايـات القوم ووشـاياتهم وراء ظهـورهم، ونسوا مـا كان بينهـم من صغائر، عمل العدو المشترك على تضخيمها، واستغلالها، وضربـوا أروع الأمثال في التماسك والترابط، وحماية الوطن المشترك من أطماع عدو لا يتورع عن استغلالهم أجمعين.

* * *

فكان القمص سرجيوس إبان ثورة ١٩١٩ يخطب على منبر الأزهر، إلى جانب الشيخين الجليلين الزنكلوني والقاياتي.. كما كانوا يخطبون في كنائس الأقباط ومثل ذلك كان يحدث في كل أنحاء البلاد.

وبلغ من أمر هذه الوحدة أن الدائرة التي يقـطنها مسلمـون وليس بينهم مسيحيون، كانت تنتخب عنهـا نائبـاً مسيحياً يمثلهـا في مجلس النواب، كمـا حـدث في دائرة (المنـزلة دقهليـوبية) فقـد انتخبت عنها الأستـاذ (ويصاواصف) ـ عضو الوفد المصري ـ ودائرة قنا التي انتخبت العضـو الوفـدي مكرم عبيـد، والأستاذ فخرى عبد النور عن دائرة جرجا.

ومثل ذلك كان يحدث في بعض الدوائر التي يكثر فيها المسيحيون مثل بهجورة، ونقادة وأسيوط، إذ كانوا ينتخبون عنهم أعضاء مسلمين.

* * *

ومثل ذلك كان في هجمات الصليبيين المستعمرين على بلادنا مرة بعد أخرى، فقد كانت الوحدة بين عنصري الأمة ظاهرة مقررة، لم يرو التاريخ عنها ما يشينها وينتقص منها.

ونحن الآن أحوج ما نكون إلى هذه الوحدة الوطنية التي جنينا من قبل ثمارها.

كفى الله الكنانة شر الفرقة، وبارك وحدتها وأعلى كلمتها، ووفقها للاستمساك بقوله تعالى: **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا﴾**[1].

* * *

الدين للديَّان: والأديان جميعها تدعو لخير الإنسانية، ففي التوراة نقرأ هذه الكلمات المضيئة والداعية والدافعة لخير الإنسانية:

«تحب قرينك كنفسك» سفر اللاويين وفيه: «كالوطن منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم، وتحبه كنفسك» وفي سفر الخروج «قيل للناس إن الحياة الصالحة أعلى درجة ورحمة من حياة العداوة والبغضاء»

وتجد في أسفار عاموص وأشعيا وغيرهما دعوات حارة لمكافحة الفقر والحرب والبغضاء وتمجيد الرحمة والتعاون.

* * *

وفي سفر الأمثال نقرأ مثلا:

«القليل من العدل خير من الغلال الكثيرة بغير حق»

«لا تقل: أجزي على الشر، ولا تقل: كما صنع بي هكذا أصنع به»، ومن سفر الخروج أصحاح (٢١) تقرأ: «وإذا بغى إنسان على صاحبه ليقتله بغدر فمن عند مذبحي نأخذه للموت، (١٤) ومن ضرب أباه وأمه يقتل قتلاً، (١٥) ومن

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

سرق إنساناً وباعه أو وجد في يده يُقتل قتـلاً. (١٦) وإن حصلت أذية تُعـطى نفساً بنفس (٢٣) وعيناً بعين، وسناً بسن ويداً بيـد، ورجلاً بـرجل (٢٤) وفي إصحاح (٢٢) نقرأ: ولا تضطهد الغريب ولا تضايقه لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر (٢١) لا تُسِئ إلى أرملة أو يتيم. (٢٢).

* * *

وفي إنجيل عيسى: «ملكوت الله في داخلكم».

«من سيَّرك ميلاً فسـر معه ميلين، ومن نـازعك ثـوبك فـاخلع له الـرداء أيضاً.» «من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر أيضاً».

ودعا إلى التسامح الكريم: «لا تقـابلوا الشر بـالشر» «أحبـوا أعداءكم، وبـاركوا لاعنيكم، وأحسنـوا إلى مبغضيكم، وصلوا من أجـل الـذين يُسيئـون إليكم، وإن سلمتم على إخـوانكم فقط وجـافيتم الغـريب عنكم فـأي فضـل تصنعون».

وجمع رسالته في تحرير الإنسانية من آصار العبودية: «روح الـرب علي، لأن الرب مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأعصب منكسري القلب، لأنادي للمسبيين بالعتق، وللمأسورين بالإنطلاق، وللعمي بالبصـر وأرسل المنسحقين في الحرية».

ثم جمع كيان الحياة في كلمة: «الله محبة»

* * *

أما في القرآن الكريم فتقرأ:

﴿يا أيها الناس إنَّا خلقنـاكم من ذكر وأنثى، وجعلنـاكم شعوبـاً وقبائـل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1].

وقال تعالى: **﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾**[2]

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٨.

وقوله تعالى: ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين * ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**﴾(١).

ويرفع قدر الصالح لمنازل النبيين: ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً**﴾(٢).

وقال نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام: «إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق»

* * *

إننا باسم الدين المشتمل على مبادئ الحضارة الإنسانية.. منذ كان في الشرق العربي إنسان حتى موسى وعيسى ومحمد ذرية إبراهيم الشرقي العربي عليهم الصلاة والسلام، باسمهم ندعو إلى السلام، وعلى هداهم ننطلق، وباسمهم نقدِّم للعالم مبادئ الحق والخير والجمال، حتى تبني الإنسانية لنفسها حضارة الخلود في الأرض، وفي السماء تحقيقاً لأروع رسالة تحدث عنها القرآن الكريم؛ حين قال الله تعالى: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة**﴾(٣) وقوله: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾(٤) والسلام على من اتبع الهدى.

* * *

وفي ختام طائفتي هذه لا يفوتني أن أحدثك عن الروتين.. فأنا لا يفوتني روح الدعابة فيك.. وعشاق الروتين يتصرفون كالآلات الخرساء من أبراج بيروقراطيتهم، وكل همهم أن تدور أصابعهم بالحبر على الورق، وهو غاية الغايات في نظرهم حتى أصبح الروتين كالأخطبوط الذي يلتف بأرجله المتعددة الملتوية كي يخنق كل ما يقع عليه، وأصبح مقبرة لكل ما هو مفروض أن يكون جميلاً.. وإليك هذه القصة:

---

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٣٣ ـ ٣٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

* كان الأستاذ الجامعي يقوم ببعض الأبحاث الطبية، واحتاج إلى عينة من البول لأحد المرضى المصابين بمرض نادر، لإجراء بعض التجارب عليها، وبعد لأي عثروا على المريض في بلدة تقع على الجانب الآخر من الحدود، وتمت الترتيبات لشحن العيِّنة بالطريق الجوي، ولكن رجال الجمارك عرقلوا هذه الترتيبات عندما لم يجدوا مثل هذا النوع من السلع في دفاترهم، ولما كان من الضروري وصول العيِّنة طازجة فقد طلب الدكتور الاتصال بأعلى مستوى في الجمارك لتسهيل الأمر.

وبعد فترة وصل خطاب اعتذار يقول: «إن هذا الشيء يجب أن يُعفى من الرسوم الجمركية»، ولكن العينة كانت قد فقدت قيمتها، ومن ثمَّ نسي الدكتور المسألة كلها، بينما استمرت العمليات الروتينة تدور!!

وبعد فترة أخرى من الزمن تلقّى الدكتور رسالة أخرى من الجمارك تقول: «إذا لم تحضروا في خلال خمسة أيام لاستلام السلعة المشار إليها فإنها سوف تُفتح وتُباع بالمزاد العلني»؟؟!!

* * *

يقول حكيم الصين العظيم لاو تسي:

«إذا لم تقاتل الناس، فإن أحداً على ظهر الأرض، لن يستطيع أن يقاتلك»..

قابل الإساءة بالإحسان.. أنا خير للأخيار وخير لغير الأخيار، وبذلك يصير الناس جميعهم أخياراً. أنا مخلص للمخلصين، ومخلص لغير المخلصين، وبذلك يصير الناس مخلصين.. وألين الأشياء في العالم تصدم أصلبها، وتتغلب عليها.

وليس في العالم شيء ألين ولا أضعف من الماء. ولكن لا شيء أقوى من الماء في مغالبة الأشياء الصلبة القوية»

* * *

«إذا ما حانت ساعة الرجل العظيم، قام من فوره وتولى القيادة، أما قبل أن تحين هذه الساعة، فإن العقبات تقام في سبيل كل ما يحاوله.. ولقد سمعت أن التاجر الموفَّق يحرص على إخفاء ثروته، وأن الرجل العظيم بسيط

في أخلاقه وفي مظهره؛ رغم ما يقوم به من جلائل الأعمال، فتخلّص من كبريائك ومطامعك الكثيرة، ومن مطامعك، وآمالك المفرطه البعيدة. . إن هذه كلها لا ترفع قط من أخلاقك، وهذا هو ما أشير به عليك. . »

* * *

ولقد حَذِق «كونفوشيوس» الدرس وسار على الدَّرب. يقول في هذا المعنى:

«إن ما يبحث عنه الرجل الأعلى هو ما في نفسه، أما الرجل المنحط، فيبحث عما في غيره. . والرجل الأعلى، يحزنه نقص كفايته، ولا يحزنه أن يجهله الناس، وإن كان يكره إلا يذكروه بعد موته، وهو متواضع في حديثه. . متفوق في أعماله. قلّما يتكلم. . فإذا تكلم أصاب من فوره هدفه، والرجل الأعلى، يتحرك بحيث تكون حركاته في جميع الأجيال طريقاً عاماً. . ويكون سلوكه، بحيث تتخذه جميع الأجيال قانوناً عاماً. . وإنه ليعمل قبل أن يتكلم، ثم يتكلم بعدئذ وفق ما عمل وما يعمل».

* * *

يقول كونفوشيوس:

«إن ما أطلبه هو الوحدة ـ الوحدة الشاملة» ويهتف «وانج يانج ـ مانج» بأن الطبيعة هي الخير الأسمى، وما الفضيلة الكبرى إلا إطاعة قوانينها، قيل له: إن في الطبيعة أفاعي، كما أن فيها فلاسفة؟ فأجاب «إن الخير والشر لفظان تُسمى بهما الأشياء حسب ما فيها من نفع أو أذى لبني الإنسان» ويستطرد قائلاً:

«إن الغرض الذي تهدف إليه السماء من وراء عملية الخلق ليتمثل في الأزهار والحشائش، فهل لدينا طريقة نفرق بها بينهما، فنقول هذه خير وتلك شر. .؟؟

إذا سرّتك رؤية الأزهار، قلت: الأزهار حسنة. . وإذا كانت بك إلى الحشائش حاجة، قلت إنها خير، إذن فالخير والشر قادمان مما هو كامن في عقلك ونفسك من حب هذا الشيء أو كراهيته وإذن فهما لا يوجدان في الأشياء نفسها، إنما يوجدان في عقل الإنسان.

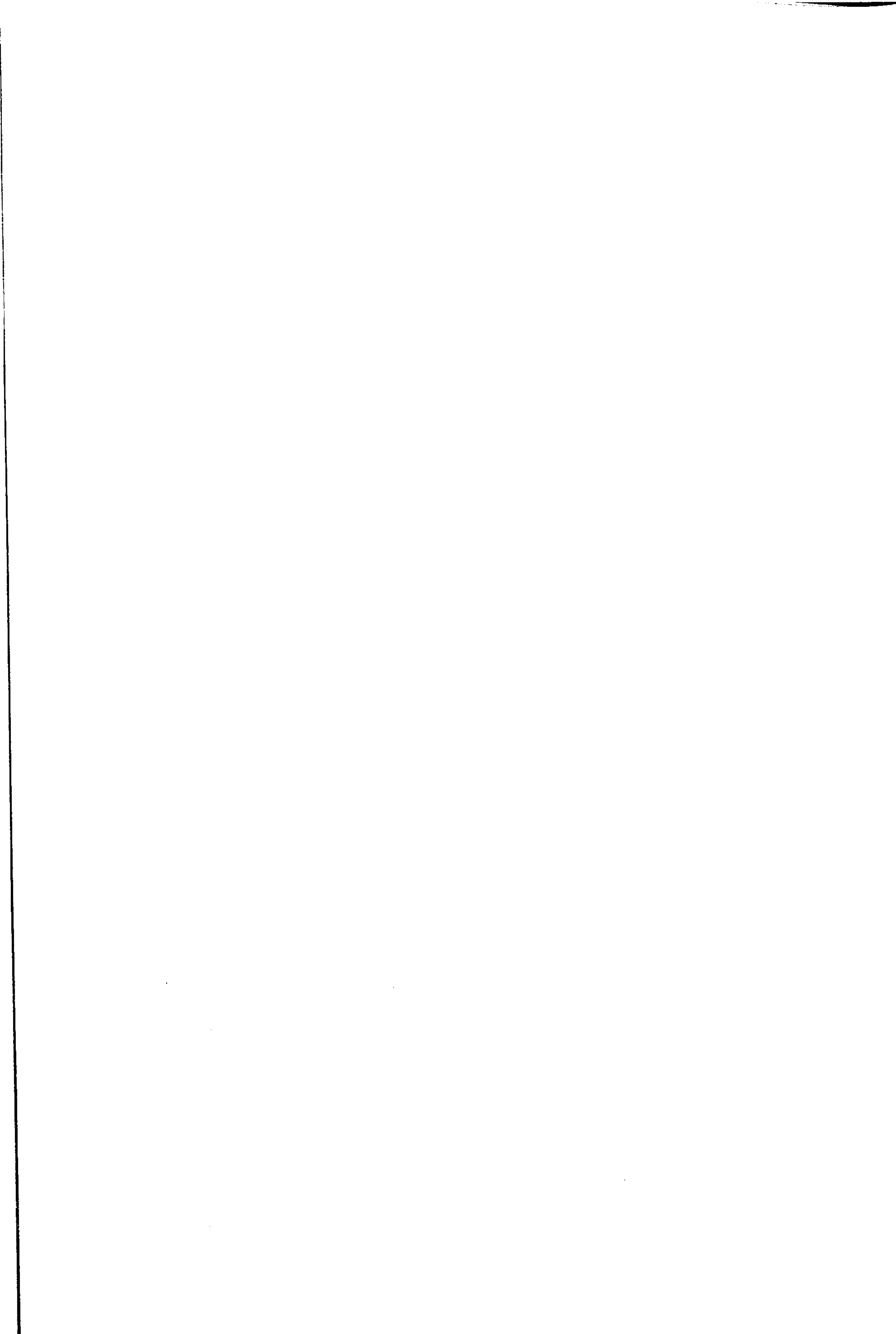
وبعـد فهذه تـوجيهات من القمـة تقف شامخـة بالغـة ضد أعـداء الخير والفضيلة على طريق الحق والخير والجمـال فَسِرْ على هُـداها، والتمس فيهـا بُغيتك، واسأل الله لي ولك التوفيق والسداد.

* * *



الفصل الخامس

الرياضة.. هدف لبناء الجسم السليم



الرياضة.. هدفك لبناء الجسم السليم

يقولون: «العقل السليم في الجسم السليم» وأنا مع اشتغالي بتربية عقل ولدي الحبيب أرى أن أخص ما يجب الاشتغال به في سنه هذه أن تُعدّ أعضاؤه سليمة قوية لاحتمال متاعب الحياة، من أجل ذلك تجدني أحثه على ممارسة الرياضات البدنية، والإكثار من قبض عضلاته وبسطها اختياراً، واقتحام العقبات التي لا يخرج عن وسعه اقتحامها. نعم إن لي رجاءً قوياً في أن لا يصير من المصارعين، ولكني أرى أن كل ضعف يلحق الإنسان بدنياً كان أو عقلياً يصير سبباً من أسباب استعباده.

* * *

إن ابني مثل كثير من لِدَّاته وأقرانه يعشق كرة القدم.. وله ولاء كبير للنادي الأهلي، ولكنه ليس تعصباً جارفاً فهو دائماً مع اللعبة الحلوة.. يشجع كل ما هو جميل.. وقد يذهب في بعض الأحيان إلى النادي لممارسة لعبته المفضلة مع بعض زملائه وما أن ينتهي وقت اللعب حتى يعود إلى المنزل فيأخذ حمَّامه كالمعتاد. وينام بعض الوقت، وفي المساء يمضي إلى استذكار دروسه.

وقد تعوّد أن يستيقظ مبكراً، ثم يؤدي بعض التمرينات الرياضية، قال لي إنها تمارين اللياقة البدنية، وقد تعلمها على يد مدرس التربية الرياضية بالمدرسة. ولكنه لا يزال جاهلاً بالسباحة، ولما كان يُفضي إليَّ بأسفه من ذلك كنت اعترض عليه بأن لا يزال في حداثة السن وأمامه الوقت لكي يستطيع أن يتعلم السباحة، وهو اعتراض لم يكن له قيمة لأنه إذا كان ما يعتري الإنسان من

الخوف عند وجوده في مكان مجهـول له هـو أكبر العـوائق التي تعطل مجـرى حركاته في هذا المكان، فلا يكون تقدمه في السن إلا من أسباب ازديـاد هذا الخوف وقوته.

* * *

اتفقنا أنا وولدي الحبيب أن نذهب إلى نادٍ قريب من منـزلنا بـه مسبح، وهناك رأينا رجلاً ضخم الجثة أسمـر البشرة، يبـدو أنه من أهـل النوبـة، مثل شخصية مجاعص التي قرأنا عنها في رواية نداء المجهول[١].

سبقني إليه ولدي الحبيب بدافع من دُعابته، وخشيت أن يحدث في الأمر شيء، فأوسعت خطوي نحوهما.

كان الرجل طيب القلب، هادئاً، وسرعان ما عَلِمْنا أنه مدرب السباحة بالنادي، ولما عرف وجهتنا، وما نحن قادمون من أجله، ازدادت دهشتـه حين علم أن ابني ما زال جاهلاً بالسباحة، قال الرجل: أما أنا فاسبح منذ ولادتي!

وهو يقصد بذلك، ولا شك أنه لا يذكر تعلمه السباحة، كما أنه لا يذكر تعلمه المشي على الأرض، لأن هذين النوعين من الرياضة همـا في نظره من الأمور الفطرية.

وقد أزال الرجل عني شكوكي ومخاوفي بتأكيده أنه لا خـطر على ولدي الحبيب من تعلمه ذلك الفن، وقـد رأيت أن من مزايـا تعلمه إنمـاء العضلات وتقويتها، وكأنه يوسع مجال حرية الإنسان في حركته ومرحه في برزخ يصل بين عنصري التراب والماء وهو فوق ذلك وسيلة من وسائل النجاة، ومن هذه الجهة يكون تعلمه فرضاً علينا لأنفسنا، ولنظرائنا، على أني كنت أعرف فيما بعد أن هذا المدرب وإن كان يتغلب عليه التهوّر في تعريض نفسه للخطر، يحرص كل الحرص على حياة ولدي الحبيب، فلا يعرضها لما يُخشى منه، ولو سيقت له الدنيا بحذا فيرها.

* * *

---

(١) للكاتب الكبير الروائي الأستاذ محمود تيمور.

وكان لهذا المدرب طريقة سهلة جداً في تعليم السباحة، على حسب ما تيسر لي من الحكم عليها، فأهم شيء بُنيت عليه هـو بث روح الثقة في نفس المتعلم، وقد أكد لي من رآه وقت التعليم أنه من أجل أن يكون قدوة في ذلك لتلميذه، كان يستلقي على ظهره في الماء ناظراً إلى السماء، ساداً فاه، متنفساً بأنفه، وقد برز جزؤه من الماء. فكأن لسان حاله وهـو في هذا الـوضع يقـول لناظريه: ها أنتم أولاء ترون أن الإنسان لا يصح أن يغرق، وأنه إذا غرق بعض الناس فإنما يغرقون مختارين.

* * *

لم يلبث هذا المدرب أن أبدى كثيراً من التيـه والفخر بتقـدم تلميذه في هذا الفن. غير أنه كان يرمي في سبيل نجاحه إلى غاية أبهر من ذلك وأظهر، فكنت أسمعه يهمهم متهكماً بالسباحة في هذا المغسل الصغير بالنادي قائلاً: وأيه يعني!! دعك منه وحدثني عن البحر، تجد آذاناً صاغية، فهو الذي يُمسك من يسبح فيه ويسنده ويزيد في قواه، ولكني كنت أعارضه وأنهاه عن الذهـاب بولدي إليه، وعن تجربة سباحته فيه، لما كان يخـامر قلبي من الـروع والفزع المنبعث عن المبالغة في توهم ما عسى أن يكون في ذلك من الأخـطار، لأني أكبر هذا الخلْق العظيم وأجله إجلالاً مشوباً بالروع، فإنه كثيراً ما اغتال أناسـاً قليلي الخبرة في فن العوم، ولا بد أن أقول: إن ولدي كان يشـاركني في هذا الروع بعض المشاركة، فإن البحر خَلْق حيٌ مضطرب يرتفع ويجذب السابح فيه إليه مصطخباً، وفي كل صفحة من صفائـح أمواجـه شخص، بل عـدو لذلـك السابح يعمل على إهلاكه، وفي دوام روحات هذه الأمواج ومجيئها، ما يمثـل للإنسان اضطراب بحر الأزل بعوالم المخلوقات، ويقدم له أكبر موعظة وذكرى تنبهه إلى ضعفه وعجزه.

* * *

لم يطل عهد نفور ولدنا الحبيب من البحر وخوفه منه، فسرعان ما قمـع ذلك النفور وشرد عنه هذا الخوف..

ولقد ذهب مع زملائه ومعهم مدربهم الطيب القلب للسباحة في نهر النيل، وقد استعان بمدربه عند عودتـه إلى المنزل خشيـة ثورتي عليـه، فلم ألبث أن

فطنت إلى المكان الذي جاء منه وهاج غضبي عليهما إلى حد أن صار وجهي أحمر كالجمر، وعنّفتهما على مخالفتهما لأمري، فلم يتزعزع ولدي لهذا الهياج، بل تلقاه بثبات الشجعان.

وأجابني وقد بدا عليه من الإصرار ما لم أعهده فيه من قبل.

فقال: إني أريد أن أتعلم السباحة لأصير سباحاً عالمياً، وأستطيع أن أعبر المانش كما يفعل الأبطال في هذا الفن، فما سمعت منه هذه الكلمة، وشاهدت المُعرب عن حرية ضميره، وخلوص طويته، ورأيت ثقته بنفسه المنبعثة عن سذاجته وعلمت مقاصده النبيلة حتى سكنت ثائرتي وكفّت بادرتي، فبششت في وجهه بعد العبوس، وتبسّمت له، وضممته إلى صدري وأشبعته تقبيلاً في جبينه الذي كان لا يزال مندّى بماء البحر.

* * *

كما علمت يا ولدي أن تكون المعرفه سبيلك في شتى نواحي الحياة. .

وقد أُتيحت لي قراءة هذا البحث الذي قام به جملة من الأساتذه المختصون في مجال الرياضة. . ورأيت أن تطلع عليه. . وتقوم بدراسته، ففيه فائدة لك ولمن هم في مثل سنك، حتى تأخذ منه ما يناسب ميولك، وينمي مواهبك، فافعل والله يوفقك.

* * *

سبعة من كبار الأساتذة المتخصصين يجيبون على سؤالك: أي الرياضات أفضل؟

طلب مجلس الرئاسة لشؤون الرياضة واللياقة البدنية بالولايات المتحدة الأميريكية من سبعة من أبرز الأساتذة المتخصصين أن يفاضلوا بين أربع عشرة رياضة من الرياضات المألوفة في مختلف المجالات، مما يكسب اللياقة البدنية، ويرقى بالمظهر الشخصي، ويحافظ على الصحة النفسية بالمزاولة المنتظمة (٤ مرات أسبوعياً على الأقل) بالتطبيق النشط (لمدة تتراوح بين ٣٠ و٦٠ دقيقة كل مرة).

* * *

وقد أسفرت وقائع التصفية عن اختيار السباحة في مقدمة الرياضات التي تنبه القلب والجهاز التنفسي، يليها ركوب الدرّاجات كأحسن ما يُمارس لتنمية الحيوية. فتأمل ما يلي من تزكيات العلماء وآرائهم الشيِّقة حول ست من أفضل هذه الرياضات الشائعة التي تمنحك اللياقة البدنية، وترقى بمظهرك الشخصي، وتحافظ على صحتك.

وهؤلاء العلماء هم:

* دكتور صمويل فوكس، الأستاذ بجامعة جورجتاون.

* دكتور ڤالين جينديل، رئيس مجلس التربية والتعليم.

* دكتور وارين جيلد، العميد السابق لكلية الطب الرياضي.

* دكتور تيودور كلامب، المستشار الطبي لمجلس الرياضة واللياقة البدنية.

* دكتور هانز كراوس، أستاذ العلاج الطبيعي.
* دكتور لورنس لام، المُعلق الطبي المعروف.
* دكتور ألان ريان، أستاذ طب التأهيـل المهني بجامعـة ويسكونسين.

وهذه تعليقاتهم:

* * *

أولاً: السباحة



د. جينديل: واحدة من أفضل الأنشطة الرياضية الشـاملة، فإن الحـركة في المـاء تنطوي على متعـة حسية إلى جـانب الاستخـدام العضـوي لأجـزاء الجسم، مما يجعلها منشطاً مزدوجاً للأجهزة الطبيعيـة وللأحـوال النفسية على حد سواء.

د. جيلد: من مزاياها أنها رياضة اللياقة الشاملة للجسم كله ولا تُفضي بمن يزاولها إلى ترهل أو بدانة، ولعلها أفضل ما يناسب النـاقهين من عمليات عظام الفخذ أو الرُكبة أو عظام القدم.. إلا أن مما يؤخذ عليها صعوبـة تدبيـر الحمّام الذي يلزم لممارستها.

د. كلامب: إنها رياضة رائعة حقاً، لكنها لا تعنى بزيادة الوزن أو تنمية العضلات من خلال تمرينات مقاومة الجاذبية، وعلى السبّاح أن يعوض هذه النقائص برياضة مساعدة توفر له النمو العضلي الشامل.

د. لام: السباحة رياضة احتمال في المقام الأول، وتتوقف على السرعة وقوة الضربات، وهي تستنفذ في المتوسط ٥٠٠ سعْر حراري كل ساعة.

* * *

ثانياً: ركوب الدرّاجات



د. فوكس: رياضة ممتازة مع الانتظام الشاق، لكنها محفوفة بالمكاره لازدحام المرور بالسيارات.

د. جينديل: يشكِّل ركوب الدراجات رياضة عريقة في مضمار الصحة واللياقة، ولها مكانة رفيعة بين أساليب تنمية الأرجل ومرونتها للرجال والنساء، كما أنها تتيح للجسم حركة حرة أوفر، وتقوِّي عضلات الظَّهر.. وكلها عوامل تؤدي في النهاية إلى فيض من الحيوية الدافقة والتفاؤل بالحياة.

د. كلامب: ركوب الدرجات بتصميمها التقليدي لا يتيح لرسغ القدم ولا للقدم نفسها التمدد الأقصى المفروض، ما يعالج وضع المقعـد بحيث يسمح للرجلين بأقصى انبساط عندما يكون البدّال في قاع الدائرة.

د. كراوس: رياضة تبني اللياقة بناء سليماً وتخدم الدورة الدموية والقلب بصفة أساسية. . ولما كانت من الرياضيات المستهلكة للسُعْرات الحرارية فمن مزاياها تخفيض الوزن.

* * *

ثالثاً: الاسكواتش

فـوكس: رياضـة احتمـال وطـاقـة وتقتضي «التسخين» قبـل البـدء في اللعب، إلا أن العبء الذي تُلْقيه على أوتار العضلات والمفاصل قد يتسبب في مضاعفات في أوسط العمر أو في خريفه.

د. جيندل: رياضة ممتازة في عدة مجالات، لأنها باعثة على قدر عظيم من النشاط، وهي توقظ في كل من الرجال والنساء وظائف الأعضاء، وتنعكس هذه اليقظة على الأحوال النفسية فيشيع فيها الشعور بالإقبال على الحياة.

د. كـلامب: لو أن الاسكواتش لَعِبتْ كما ينبغي لأتـاحت لمن يمـارسهـا أقصى قدر من التمرين البدني في أقل وقت ممكن.

د. لام: الاسكـــواتش من الـريـــاضـات التي تستلزم ذخيـرة من قـــوة الاحتمال، ويُقدر ما تستنفده من السُعْرات الحرارية بألف سُعْر في الساعة الواحدة.

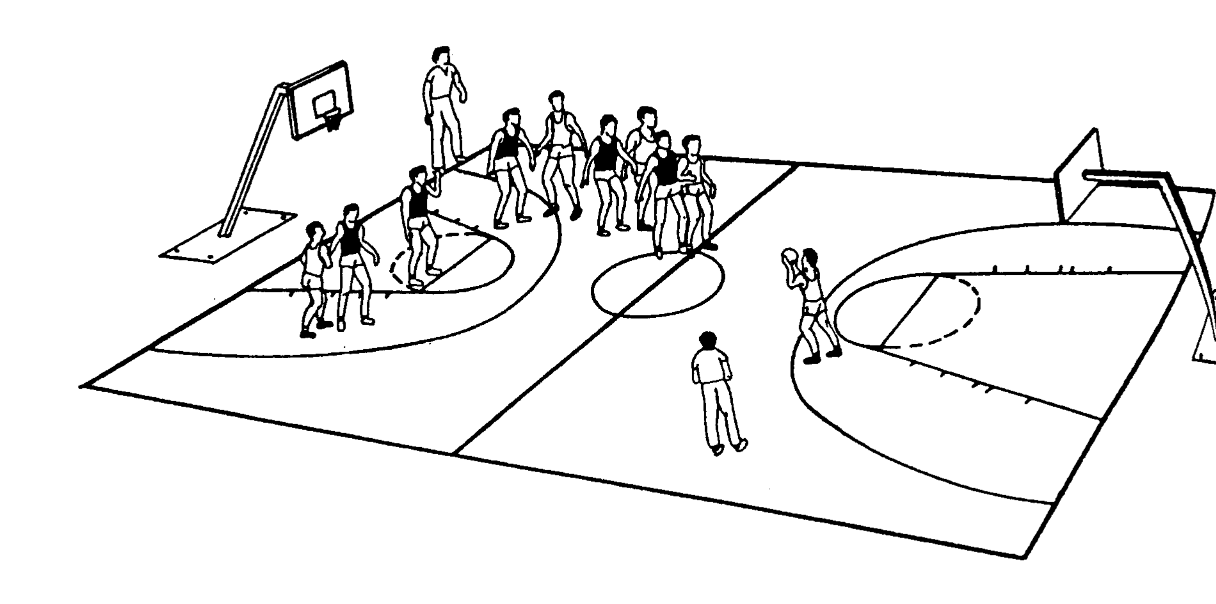
* * *

رابعاً: كرة السلة

د. جيلد: ما أفضلها رياضة.

طاقة وحيوية، لكن كم يبدو عسيراً أن تجمع عشرة فتيان أربع مرات كل أسبوع.

د. جيندل: من الواضح أن كرة السلة تساهم في توفير اللياقة البـدنية ومظاهر الصحة بوجه عام، إلا أن طبيعتها كلعبة جماعية لا تضمن لها الاستمرار ولا الاستقرار.



د. **لام**: تستنفد كرة السلة قدراً هائلاً من النشاط، يُقاس بحوالى ١٠٠٠ سعر حراري في الساعة بالنسبة للاعب العادي.

د. **ريان**: إنها رياضة «الجاهز» بدنياً، فإنك لا تلعب كرة السلة لتكسب اللياقة، لكنك تلعبها لأنك لائق.

* * *

خامساً: التنس

د. **فوكس**: أروع الرياضات لتشكيل الجسم الممشوق، واكتساب المرونة والتوازن، وإذا تمت ممارستها بجدِّية فإنها تنمي طاقة الاحتمال.



د. **جينديل**: إنها تدريب شامل الفائدة، وإن كان يحمل في طياته، شأن الرياضات المثيلة كالجولف وغيره، عناصر الاهتمام ومنها القلق على النتيجة.

د. **كلامب**: تمرين رائع يخدم كل الأغراض عدا تنمية الجزء العلوي من الجسم بجانبيه، أما دوره في تجديد الدورة الدموية وتنشيطها فيعتمد على أسلوب اللاعب في مزاولة رياضته.

د. **ريان**: إذا كنت مُقْبلاً على اللعبة ساعياً بهمّة وراء الكرات تَكْفَّلَ التنس بأن يحفظ عليك لياقتك ورشاقتك.

* * *

سادساً: السير على الأقدام

د. **فوكس**: رياضة ممتازة لإصلاح ما فسد، لكنها لا تضيف شيئاً إلى من لا يحتاجون إليها.

د. **جينديل**: تمرين جيد لأن كل امرئ يستطيع أن يؤديه وحده أو بصحبة آخر أو جماعة. . ولا حاجة به إلى أجهزة أو تجهيز ولا ارتباط له بموسم معين. ويمكن تنسيق مشقته مع مختلف الأعمار والأحوال الصحية، والسير على الأقدام يسمح بالتأمل ويساعد على التركيز، وبذلك يُضفي على النفس ارتياحاً تفتقده ويتيح لها التجدد بالتفاؤل فينعكس الارتياح والتجدد بالخير على النشاط العضوي للجسم كله.

د. **جيلد**: يُحسب في جانبها أنها رياضة لياقة وحيوية خاصة إذا اقترنت بالنشاط العملي اليومي. أما ما يؤخذ عليها فطول الوقت الذي تستغرقه ما لم تتسع خُطى الرجلين لتصبح سريعة حثيثة.

د. ريان: رياضة عظيمة منبهة للطاقة محافظة على اللياقة، شريطة أن تؤدى بخطى نشطة ثابتة الإيقاع.

* * *

ونضيف إلى ما سبق نوعين آخرين من الرياضات المألوفه:

أ ـ رياضة الجري: كذلك من المفيد.. رياضة الجري، ولكن يجب أن تجري وأنت في حالة ارتخاء كامل لعضلاتك، ولا يجب أن تكون مشدود الأعصاب. وهنا يجب أن يكون الجري ببطء واجعل خطواتك متوافقة مع إيقاع معين ردده في سرِّك. قل لنفسك وأنت تجري واحد.. اثنين.. واحد.. واحد اثنين.. على أن تتوافق حركة ساقيك مع هذا العدِّ.

ب ـ نط الحبل: أما نط الحبل فإنه من أنواع الرياضة المفيدة لجسم أي فتاة أو شاب. إنها تحرِّك كل عضلات الجسم تقريباً. إن نط الحبل لمدة خمس دقائق يومياً من أنواع الرياضة المفيدة جداً.

* * *

القوام المعتدل

يُعرِّف بيروت Perrott القوام المعتدل بأنه وجود الجسم في حالة توازن مما يساعده على القيام بالأنشطة الفسيولوجية المختلفة بأعلى كفاءة وأقل جهد في نفس الوقت. والتعريف السابق يتناول القوام المعتدل من الجوانب التالية:

١ ـ النمو المتزن لأعضاء الجسم.

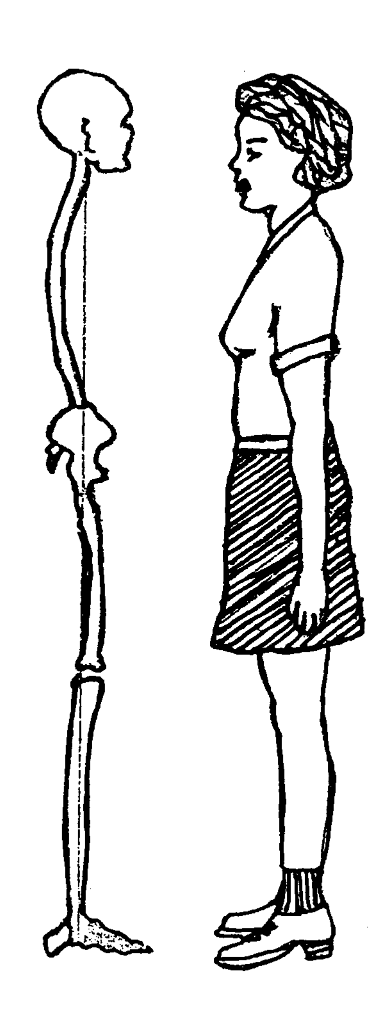
٢ ـ التناسق بين أجهزة الجسم المختلفة.

٣ ـ وجود مركز الثقل في الوضع العمودي السليم.

٤ ـ بذل أقل جهد وأعلى كفاءة في العمل المطلوب.

* * *

الوقفة المعتدلة



هناك بعض الاعتبارات التي يجب مراعاتها في الوقفة المعتدلة:

١ ـ يجب أن تكون القامة منتصبة مع عدم التصلب والتوتر الزائد في العضلات.

٢ ـ ارتكاز الجسم على القدمين وتوزيع الثقل بالتساوي، ويقع في منتصف القدم. ويكون مشط القدم متجهاً إلى الأمام ـ الأصابع مضمومة ـ والعقبان متلاصقان أو بينهما زاوية ٤٥°.

٣ ـ فرد الركبتين ـ الرضفتان للأمام والركبتان ملتصقتان.

٤ ـ عدم دفع الحوض للخلف أو للأمام.

٥ ـ سقوط الكتفين بثقلهما حتى تتعلق الذراعان، ويكون الكفان مواجهين للجنب.

٦ ـ الصدر مفتوح مع حرية التنفس، والرأس مرتفع والنظر للأمام والذقن للداخل.

٧ ـ الجسم عمودي مع الميل قليلاً للأمام.

٨ ـ قبض عضلات البطن للداخل.

* * *

أخطاء الوقفة:

«القدمان»: ثقل الجسم على قدم واحدة ـ أو وقوع ثقل الجسم على حرف القدم الخارجي ـ دوران القدم للداخل ـ دوران القدمين للخارج.

«الركبتان»: دوران الركبتين للداخل أو الخارج ـ ارتخاؤهما ـ شدهما للخلف بقوة فتؤثر على الساقين.

«**الحوض**»: دفع الحوض للخلف - دفع الحوض للأمام - دوران الحوض - ميل الحوض إلى أحد الجانبين.

«**الأكتاف**»: دوران الأكتاف للأمام - ضغطها للخلف - ارتفاع أحد الكتفين عن الآخر - رفع الكتفين إلى أعلى وسقوط الرقبة بينهما.

«**عضلات البطن**»: عدم قبضها للداخل أو تراخيها وسقوطها للأمام.

ملاحظة التوجيهات السابقة ضرورية ومراعاتها مطلوبة في كل من الوقوف والجلوس وأداء العمل وجميع الأعمال المنزلية. ويتحقق الوقوف نتيجة عمل المجموعات العضلية المختلفة لمقاومة الجاذبية الأرضية وقد اعتمد الجسم أساساً على سلامة العظام والأربطة، ووجود هذه المجموعات العضلية في حالة نشاط عضلي مستمر ضد الجاذبية الأرضية. وقد اصطلح على تسمية هذه المجموعات العضلية عضلات ضد الجاذبية. ووظيفة هذه المجموعات العضلية هي مساندة العمود الفقري لمنع تأثير الجاذبية الأرضية. ويجب أن تتصف هذه العضلات بالقوة والجلد، وإذا أراد الفرد أن يقف وقفة صحيحة نجد أن العضلات المادة لمفصل القدم والركبة والحوض تعمل ضد الجاذبية حتى تحتفظ بهذا الوضع:

* فعضلات قوس القدم تحفظ القدم وتثبته.
* والعضلات ذات الرؤوس الأربع الفخذية تفرد الركبة (quadriceps Muscle).
* والعضلة الألية العظمى تفرد مفصل الحوض (Gluteal Muscle).
* **والعضلات البطنية وهي**: العضلة المستقيمة البطنية (Rectus Abdominal Muscle).
* - العضلة المنحرفة الداخلية (Internal Abdominal Muscle).
* - العضلة البطنية المنحرفة الخارجية (External Abd, Muscle).

تعمل جميعها في توازن بمساعدة المستقيمة الظهرية حتى يظل الجسم مستقيماً. وفقدان الوظائف لأي هذه المجموعات العضلة يحتاج من الفرد إلى عمل تعويضي يقوم به لتعويض هذا النقص.

المشية الصحيحة

المشية الصحيحة المتزنة من أهم صفات الجمال والصحة. ومن شروط المشية الصحيحة أن تكون القامة كما في الوقفة المعتدلة وأن يكون الذراع حراً ويمتد بسهولة ويكون باطن اليد متجهاً لجانب الفخذ ولا يبالغ في هزّ الذراعين.

ـ ويجب أن تكون علامتا القدمين على الأرض متوازيتين اللهم إلا من مسافة بينهما صغيرة.

ـ يجب ألا تتقاطع العلامتان.

ـ وفي المشية تكاد تكون الركبتان ممتدتين إلا أن ركبة الرجل المتحركة تثنى قليلاً لتسمح للقدم المتحركة بالمرور بجانب القدم الثانية دون جرها على الأرض.

ـ وتوضع القدم على الأرض مع انثناء قليل حتى أن عقب القدم تكاد تلمس الأرض.

ـ وتزداد الرشاقة إذا وضعت اصابع القدم أولاً.

ـ **العادات الخاطئة في المشي:**

١ ـ خفض الرأس وتوجيه النظر لأسفل.

٢ ـ المشي بتراخ وعدم فرد الجسم.

٣ ـ المشي مع ثني الركب.

٤ ـ هز الذراعين بتصلب أو هز أحدهما أكثر من الآخر.

٥ ـ دوران الكتفين للخارج أو للداخل.

٦ ـ التخبط في المشي وجر الأقدام.

٧ ـ دوران القدمين للخارج أو للداخل.

٨ ـ كبر الخطوة أكثر من اللازم.

ـ وفي أثناء المشي تتحرك مجموعات عضلات من الجسم وفي نفس الوقت تعمل عضلات أخرى على المحافظة على بقاء الجسم ثابتاً. وهذا يتطلب كثيراً من التوافق العضلي العصبي كما أن طول الخطوة العادية حوالى قدم واحدٍ من العقب إلى العقب.

* * *

حتى لا تكون الرياضة خطراً على حياتك

* إذا أحسست بالنهجان وسمعت ضربات قلبك تتوالى في عنف وسرعة أو شعرت بالغثيان فليس معنى ذلك أنك لا تصلح للرياضة.

* لا تمارس الرياضة بعد الأكل ومعدتك ممتلئة.
* لا تمارس الرياضة وأنت مرهق نفسياً أو جسمانياً.
* استرح بضع دقائق على السرير في حالة سكون تام ثم ابدأ في الرياضة بالتدريج.
* قبل ممارسة الرياضة سخن عضلاتك ببعض التمرينات المريحة البسيطة.
* اجلس على الكرسي، ومرجح ذراعيك ورجليك.
* ستنجح ١٠٠٪.

نشبه الشخص البدين بأنه شخص عادي ولكنه يحمل دائماً «صفيحة سمن» يحملها أينما ذهب وأينما جلس بل وعندما ينام. وبوسائل الرياضة العلاجية التي شرحتها لك ستتخلص يا صديقي من هذه الصفيحة اللعينة ١٠٠٪ وتنطلق إلى حياة أكثر حيوية وأكثر انحرافاً.

* * *

كيف تتخلص من الكرش؟

ومن الشكاوى الشائعة هذا الانتفاخ الذي يعلو البطن والذي نطلق عليه: الكرش!

كيف يمكن أن نتخلص منه؟

إن ذلك ممكن إذا قمت بهذه الحركات:

* استلق على ظهرك وحرك قدميك كما لو كنت راكباً دراجة.
* امسك المكواة أو يد الهون أو أي جسم ثقيل الوزن في يديك ومرجح الذراعين من الكوع ثم من الكتفين للأمام والخلف ثم للجانبين.
* كرة صغيرة من الكاوتشوك أو كرة تنس قديمة.

ـ اقذفها في اتجـاه الحائط والتقـطها ثـانية بنفـس اليـد ويدك مفـروذة جانبك خمسين مرة.

ـ كرر التمرين، ويدك مفرودة لأعلى خمسين مرة.

ـ اقذفها من يد لأخرى خمسين مرة.

ـ اقذفها لأعلى بيـدك اليمنى صفق مرتين وامسكها باليسرى.

* ـ خرط الملوخية تمرين للكتفين والذراعين.

* ـ اجلسي القرفصاء وحاولي المشي من أول الغرفة لأخرهـا وأنت في هذا الوضع.

* ـ سِرْ دقيقتين علي الكعبين فقط ودقيقتين على أطراف أصابعك.

* ـ اعبر الغرفة قفزاً على رجـل واحدة اليمنى مثـلاً... ثم ارجع على الرِجل الأخرى.

* ـ سِرْ لمدة دقيقتين واضعاً كتاباً فوق رأسك وحاول أن لا يسقط منك.

* * *

الفصل السادس

حب الوطن



حب الوطن

يقول شوقي رَحِمَهُ الله:

وطني لو شُغلت بالخُلْد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي

وكم سمعنا المطرب محمد عبد الوهاب يشدو:

حُب الوطن فرض عَليَّ ... أفديه بروحي وعينيّ

وقال جالينوس: يتروح العليل بنسيم أرضه كما تتروّح الأرض الجدبة بِبَللَ المطر.

وكان يُقال: بحب الأوطان عمُرت البلدان ويقول النبي ﷺ: الخروج عن الوطن عقوبة.

وحين أخرجه أهل مكة. كان يرنو ببصره إليها ويقول بقلب الواله المُحب: «أعلم أنك أحب البلدان إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لولا حُب الوطن، لخرب بلد السوء».

* * *

خطر في ذهني خاطر العودة إلى قريتي، ولكن ألف مانع وإن شئت فقل ألف وهم ـ قد تحول بين المرء وبين معيشته في وطنه، وما أدراك أن من هذه الموانع ما يعتريني من الألم الممضّ الذي لا أستطيعِ التعبير عنه كله، ومنه خراب القلوب التي قست حتى صارت أشد قسوة من الحجارة، وفساد

الضمائر، وتفشي ظاهرتي النفاق والكذب، وكثرة المظالم، والغش، . . . وغيرها من الأمراض الاجتماعية بين أفراد تظن أنهم بسطاء، وطالما عمَّر أسلافهم هذه البلاد بالحب والتكافل الاجتماعي في أجلى صورة، ولا أعرف إلى متى يستمر هذا الحال؟ وهو ينحدر من سيِّء إلى أسوأ، حتى أخشى أن يأتي يومٌ يؤذن بخراب هذه البلاد. . !!!

* * *

روي عن كعب بن مالك أنه وصف وحشة المدينة لغيبة النبي ﷺ فقال: تنكَّرت البلاد فما هي بالبلاد التي نعرف، وتنكر الناس، فما هم بالناس الذين نعرف، وفي معناه قال الشاعر:

فما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنتُ أعرف

وقال آخر:

إذَا مَا أَطَالَ المرء مكثاً ببلدة تعقّبه من بعد حدّته نَكْسُ
ولو أنّ هذه الشمس دام طلوعها أو البدر لم يُحبَبْ ولا حُبّبَ الشمس
فجُلْ طالباً للرزق في الأرض واغترب ففي كل أرض للفتى الأكل واللبس

* * *

وقيل: من علاقة الرشد أن تكون النفس إلى أوطانها مشتاقة وإلى مولدها توّاقة.

وقيل لأعرابي: كيف تصنع بالبادية إذا انتصف النهار وانتعل كل شيء ظله؟ فقال: وهل العيش إلا ذاك؟ يمشي أحدنا ميلاً فيرفض عرقاً كأنه الجُمان، ثم ينصب عصاه، ويلقي عليها كساءه، وتُقبل عليه الرياح من كل جانب فكأنه في إيوان كسرى.

إذا ما ذكرتُ الثغر فاضت مدامعي وأضحى فؤادي نهبةً للهماهم
حنيناً إلى أرض بها أخضرّ شاربي وَحُلّت بها عني عقود التمائم
وألطف قوم بالفتى أهل أرضه وأرعاهم للمرء حقُّ التقادُم

* * *

وقال آخر:

أَحنُّ إلى أرض الحجاز وحاجتي خيامٌ بنجد دونها الطّرف يقصر
وما نظري من نحو نجد بنافعي أجل لا ولكني على ذاك أنظرُ
أفي كل يوم نظرة ثم عَبْرة لعينك يجري ماؤها يتحدّرُ
متى يستريح القلب؟ إما مجاورٌ حزين وإما نازح يتذكر

وقال الطائي:

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحبُّ إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

* * *

وقال أيضاً:

لا يمنعنك خَفض العيش تطلبه نزاعٍ شوق إلى أهلٍ وأوطان
تلقي بكل بلاد إن حللت بها أهلاً بأهل وجيراناً بجيران

قال أبقراط: يداوى كل عليل بعقاقير أرضه، فإن الطبيعة تنزع إلى غذائها.

وقيل: لما خرج الرشيد إلى خراسان وصار بعقبة همذان أنشأ يقول:

حتى متى أنا في حَلٍّ وترحال وطُول همّ بإدبار وإقبال
ونازحُ الدار لا ينفكّ مغترباً عن الأحبة لا يدرون ما حالي
في مشرق الأرض طوراً ثم مغربها لا يخطر الموت من حرصي على بالي
ولو قنعت أتاني الرزق في دَعةٍ إنَّ القُنُوع الغِنى لا كثرةُ المال

* * *

وقال الفتح بن خاقان: ورد عليّ أعرابي من البادية، نجديّ فصيح، فبات ليلة عندي على سطح مشرف على بستان، فسمع فيه صوت الدواليب[1] فقال:

---

(١) السواقي.

ما أشبه هذا إلا بحنين الإبل، وأنشدني:

بَكَرت تحن وما بها وجدي وأحِنّ من شوق إلى نجدِ
فدموعُها تحْيا الرّياض بها ودموع عيني أحرقت خدّي

* * *

ما أشدني حنوّاً وتأثراً عند تقبيل ولدي إياي! وما أعظم زهوي وإعجابي به عندما آخذ بيده وأتنزه معه في المزارع، وأحس كأن كل ذرة من التراب وهو يمرح ويلعب قد التصقت بحبات قلبي، وإن الدنيا لتُرى في عيني جديدة وهو معي.. فأدعو الله مخلصاً أن يجنّبه المكاره، وأن يحفظ فلذات الأكباد، وثمار القلوب.

* * *

قال بعض الفلاسفة: اطلبوا الرزق في البُعد فإنكم إن لم تكسبوا مالاً، غنمتم عقلاً كثيراً..

يوجد في جميع عصور التاريخ رجال بررة صالحون رأوا من الواجب عليهم لأنفسهم ولأوطانهم أن يخدموا هذه الأوطان وهم بمعزل عنها، فمثل هؤلاء فيما أرى أشد حُباً لها، لأنهم سواء قربوا منها أو بعدوا عنها يحيون بنفحاتها، وينتعشون بمجاهداتها في سبيل الخير وبما لها من الآمال في الوصول إليه. جرحهم في صميم أفئدتهم ما مسّ أمتهم من الأزمات، وإن كان يبدو من حال الأمة عدم شعورها بألمها، وكأن في مرور الزمن عليها، واعتيادها احتمالها من قوة التأثير ما يكفي لاندمالها جميعاً.

مثل هؤلاء المتطوعين بالاغتراب يلومون الناس وحوادث الدهر، ولكن إذا حاول محاول أمامهم أن يغضّ من كرامة مصر ويحط من شأنها، استشاطوا غضباً، وهاج الدم في عروقهم، ذلك أن هذه القطعة من الأرض التي تنازلوا عن سُكناها مختارين، قد تغلغل حبها في أحشائهم وأخذ بمجامع قلوبهم، فتراهم يبذلون الوطن نفسه في إعزاز شأن المعنى الذي قام في أذهانهم منه، ويفضلون الحكم على أنفسهم بالبعد عنه على رؤيتهم إيَّاه يتلظّى بنار الأزمات.

عليك سلام الله يا خير منزل رحلنا وخَلَّفْناك غير ذميم

فــإن تـكن الأيــام فــرّقـن بيـنـنـا فـمــا أحــدٌ من ريـبـهــا بـسـليـم

وقال آخر:

سَــلِ الله الإيــاب مـن الـمـغـيـب فـكم قــد ردَّ مـثـلك مـن غــريـب
وسَــلِّ الحــزن عنــك بُحْـســن ظنٍ ولا تـيــأس من الـفــرج القــريـب

اللهم احفظ لنا أوطاننا وبارك لنـا فيها، فبحبهـا نحيا وبحبهـا نعيش. - حفظ الله الكنانة من كل سوء ووفق المسؤولين المخلصين للنهـوض بالـوطن وإعلاء شأنه إنه سميع قريب مجيب الدعاء. . رب العالمين. .

* * *



الفصل السابع

كيف نعلم أبناءنا في البيت



كيف نعلم أبناءنا في البيت

لم تخلف طريقتنا في تربية «بني» أملاً بين آمالي، فلتبق على ما هي بسبيله من تهذيبه، وتثقيفه بما تقدمه له من الأسى وبما توحيه إلى نفسه من الثقة بها، على أننا منذ ترعرع «بني» وشبَّ عن الطوق، رأينا أن نقسم العمل بيننا، أنا ووالدته، في شرح دروسه ومراجعتها، معتمدين أساساً على همته ونشاطه، ودأبه على التفوق بين زملائه، فأقوم أنا بشرح التاريخ الطبيعي والكيمياء مستعيناً بالميكرسكوب الذي يوجد لدي، والذي يحاول جاهداً معرفة أجزائه، وقد علمته كيف يحرّك أجزاءه بنفسه، فيكبر له بعض عجائب المخلوقات المتناهية في الصغر، مثل البكتريا بأنواعها وغيرها. . وقد اشتريت له تليسكوباً صغيراً، وهو آلة لرصد النجوم، ليرى عجائب المخلوقات المتناهية في الكبر.

وقد ملأنا إناء من الزجاج بالماء والملح ووضعنا فيه حيوانات هلامية وحيوانات قشرية وأسماكاً، وكنا نجدد ماءه كل ثمانية أيام، ومنه تلقى «ولدي» كل ما عرفه فيما رأى من علم حياة الحيوانات البحرية. . وفي بعض الأحيان أكرر بمشهد منه بعض التجارب السهلة جداً في الكيمياء والطبيعة.

* * *

وقد أحضرنا كومبيوتر[1] في المنزل وهو من النوع الحديث والغرض أن يتعلم «بني» قواعد هذه الآلة ويتقنها، فقد صارت من أهم أعمدة التقدم في

---

(١) أخبرني «بني» أنه يوجد بالمدرسة فيديو لعرض الأفلام العلمية والترويج عنهم بعرض مناظر الطبيعة والاهتمام بشؤون البيئة.

العصر الحديث، وهو يتلقى دروسه فيها، في أحد المعاهد الخاصة بهذا الفن في غير وقت الدرس، وقد بدا لـي أنه حذف بعضها وأنه يقـوم بإدخـال بعض البرامج بنفسه، وفك رموزها، وإني به لشديد الإعجاب والفخر!!

* * *

تقوم والدته بمراجعة دروس الرياضة والجغـرافيا، وأقـوم بمراجعـة باقي المواد مثل التـاريخ ودروس اللغـة، وهو يثـابر في جـد واجتهاد وأسـأل الله له التوفيق والسداد..

* * *

لا بد أن أكون أنا «وبني» تابعين في التعليم لمذهب ارسطاطـاليس لأنه أغلب درسنا يحصل في وقت التنزه، فإني أدع لأمور الكون وحوادثه تنبيه ذهنه غير متعرض لها بشرح ولا تفسير إلا أنه يكون إجابة عما يوجه إليَّ من الأسئلة مجتهداً في أن يكون الشرح واضحاً والبيان وافياً.

وقد عرفت من محـاوراته أن الـوسيلة إلى إصغائـه إليَّ هي تتبع سلسلة أفكاره عند محادثته.

* * *

إن كثيراً ممن يأخـذون على أنفسهم تعليم النـاشئين ليبـالغـون لهم في البيان، ويفرطون في الشرح كما لو كانوا في حاجة إلى أن يثبتوا بذلك لأنفسهم أنهم على معارف واسعة وعلوم جمة.

أنا لا أعلِّم ولدي شيئاً بل أتعلم منه، فعوضاً عن كوني أُعلمه طريقتي في النظر، اجتهد في معرفة طريقته، وتمييزها، وما لا يميل إلى معرفته بحال أجهله مثله أو أتجاهله.

نعم إن هذه الطريقة ليس من شأنها أن تُعلي قدر الأستاذ في نظر تلميذه، وأنه لا بد في اتباعها من تنزه العقل عن الغرض وتنازله عن شهواته، ولكن ما هو متبع الآن من نقش صيغ العلوم وقوانينها وقضاياها في أذهان الناشئين ليس إلا ضرباً من الكتابة على الرمل أو قل النقش على الماء..

* * *

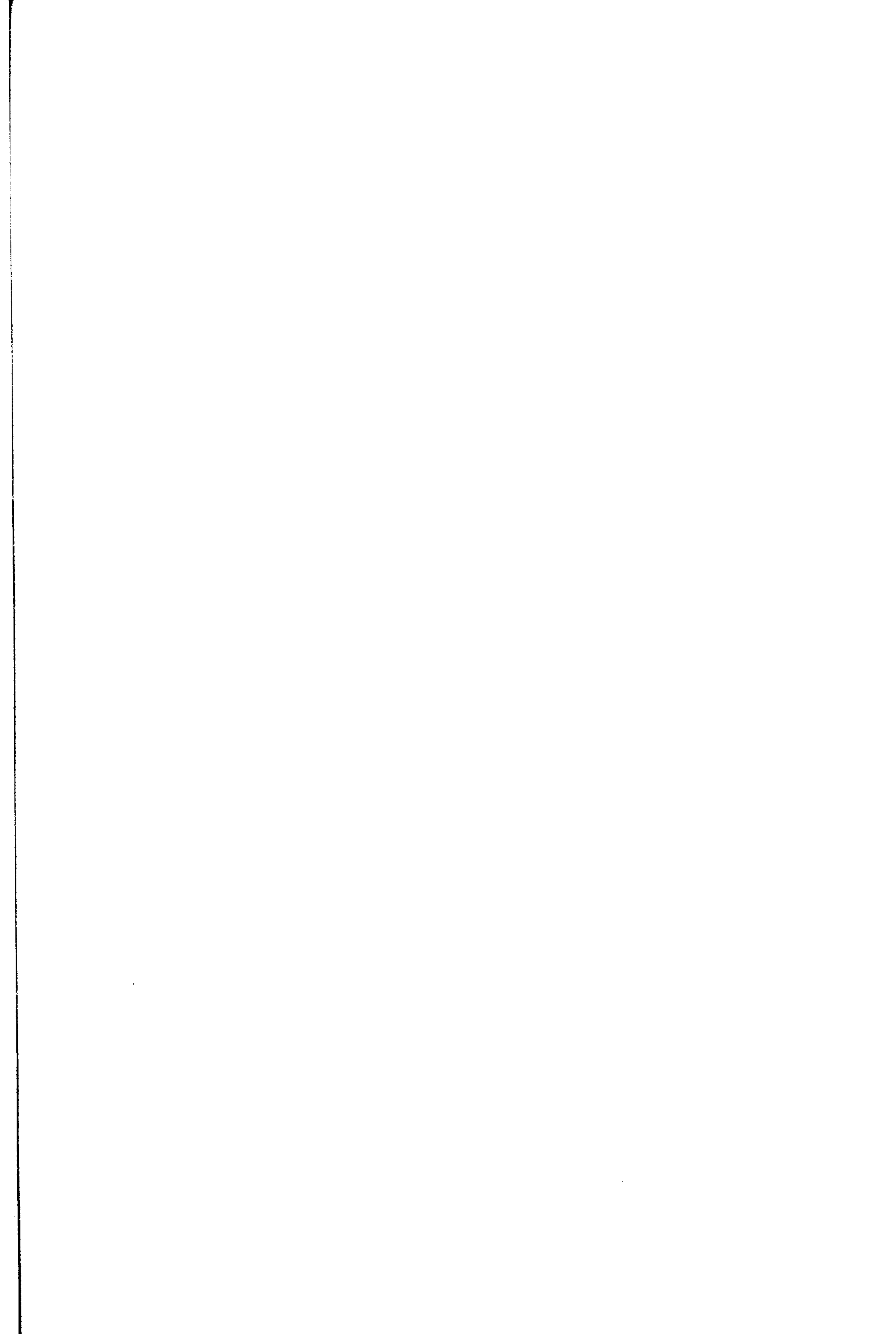
ملكة البحث عن الناشئين هي كغيرها من الملكات تنمو بالاعتياد والمراس، فإن الشوق إلى معرفة الأشياء يتولد في الإنسان ولا يولد معه، وإنما يُكتسب ذوق الملاحظة الاستقلالية بالملاحظة نفسها، ولا ريب أن أُعين انتباه «بنيّ» والتفاته بأن أُريه ما لا يراه في الأشياء لأول نظرة إليها، غير أنه في هذه الحالة يجب أن يكون هو مصدر الميل إلى ذلك أيضاً، وأن يكون صدور هذا الميل منه فطرياً. ثم إن الناشئين في الجملة مدفوعون جداً بسائق الطبع إلى الإكثار من السؤال، فرأيي أن التعجيل لهم بالجواب قبل السؤال، وتجاوز حدود ما يطلبون معرفته، هو ما تخبو به نار هذا الاستعداد المبارك، لأن ذلك يُفضي بكثير منهم إلى التزام السكوت، ليكفُّوا أنفسهم مؤنة سآمة الدرس وطوله.

* * *



الفصل الثامن

اختلاط الذكور مع الاناث في دور العلم



اختلاط الذكور مع الإناث في دور العلم

من تعاليم ديننا الحنيف أن الاختلاط مُحرَّم شرعاً وأنه لا يناسب أبداً تقاليد مجتمعاتنا الشرقية الأصيلة التي درجت على الفضيلة، خشية أن يؤدي الاختلاط إلى اضمحلال أخلاق الشباب ووقوعهم في درك الرذيلة، وعدمه يجعلهم بمنأى عن كل ذلك، ويحفظ عليهم أوقاتهم وشبابهم.

* * *

ولكن هناك من العلماء في الغرب من يرى أن اختلاط النوعين في دور العلم، يؤدي إلى خلق التنافس الشريف بينهما. والمرجو من هذا التنافس أن يعود دائما بالفائدة على كليهما، فإن درسهما مجتمعين أحسن وأتقن منه منفردين.

لأنه إذا اعتبر الشاب نفسه أعلم من زميلته، اجتهدت في المنافسة عليه في ميدان الدرس.

* * *

ويرى أن هذه الصحبة تفيدهما في أخلاقهما فائدة كبرى، فإن الناشئين على علم تام بما يشتركون فيه من العيوب ولا يُبقي بعضهم على بعض في تشهيرها وتعييرها إياها، وقلما يوقر بعضهم البعض فيما يراه من النقائص، والفتاة أيضاً لا تقصر في أن تكيل له الصاع بمثله، بدون أن يكون عن هذه المشاغبات الخفيفة ما يكدر صفو مودتهما الشريفة في شيء، وكأني بقائل يقول: إن هذه

المزايا بعينها توجد في معاشرة الأخ لأخته ووجودهما معاً، فأجيبه بأني في شك من ذلك لعدم تمام الشبه في الجهتين.

* * *

ويضرب لذلك مثلاً. من واقع الحياة يقول: «زرت فيما مضى مدرسة للصمّ والبكم، كانت تنقسم في أول نشأتها إلى قسمين أحدهما للذكور والآخر للإناث، فلم تلبث التجربة أن كشفت عيوب هذا التقسيم، فإن الفتيات اللاتي كن مقصورات في قسمهن كان يبدو عليهن التأخر عن الغلمان سنة أو سنتين، ولم يكن الغلمان أنفسهم بارعين في التقدم والنجاح، فخطر في بال القائمين على المدرسة، أن يجمعوا الفريقين في غرف واحدة، فكانت نتيجة هذا التغير محمودة، فإنه لم يمض إلا يسير من الزمن، حتى زال تأخر أحد الفريقين وانحطاطه عن الآخر، وتقدم الآخر تقدماً لا نزاع فيه. ذلك لأن العُجْب الذي هو خُلق فطريّ في الذكر والأنثى، والطمع الذي هاجه في نفوس الغلمان، هو وجود منافسات زاهيات بأنفسهن بينهم واهتمامهم بإن يظهروا في أعينهن ممتازين عنهن، كل ذلك ساعد من الجهتين على ازدياد درجة معارفهم في دروسهم مع أنهم كانوا هم التلاميذ الأولين لم يتغيروا، وإنما ظهر أن قواهم تضاعفت. فلماذا لا يصح في حق الناطقين والناطقات ما صح في حق الصُمّ والبكم؟

* * *

إنما يعارض القائمون على تربية الناشئين في الجمع بين الذكور والإناث بحجة المحافظة على الأخلاق والآداب، ولو كانت هذه المعارضة مبنيَّة على سبب صحيح لكانت وجهة سديدة، ولكن لا بد أن نجيب هؤلاء المعارضين بأنه لم يفكر أحد البتة في جمع هذين الصنفين في المدن الجامعية مثلاً، ولا شك أن تقسيم محال المدرسة، وأفنيتها والرياضات المدرسية بالحكمة والتدبير، يجنِّب كثيراً من المضار التي يُخشى منها على الأخلاق والآداب.

* * *

على أن العمل العقلي إنما جُعِل لتذليل الغرائز والشهوات الخبيثة، وقمعها لا لتنبيهها وتقويتها، وإني أرى ـ خلافاً لأولئك المعارضين ـ أن في

التفريق الكلي بين الصنفين خطراً على الفضيلة، فإن فرط الاحتراس والاحتياط الصادر عن الرياء والنفاق لا يكون منه إلا دعوة إلى الفساد الأخلاقي عن طريق الاحتيال، وإن كثرة بث روح الحذر في أطهر المعاملات وأعفها توقظ في اليافعين ما هو نائم من شهواتهم، وتُظهر ما يكون كامناً من أشواقهم، فينبغي أن تزول هذه الحدود المادية، ويعتاض عنها بحدود الله التي فطرهم عليها، وجعلها في نفوسهم سياجاً لما فرضه عليهم.

* * *

لا أريد مما تقدم أن الذكر والأنثى في التربية سيان يصلح لأحدهما كل ما يصلح للآخر، كلا. بل كل منهما يقتضي تربية خاصة لاختلافهما في المواهب الفروض والغرض الذي خلقا لأجله، على أننا نرى النابغين والنابغات من الصنفين يتكافئون ويتناسبون في بعض ذُرى العلوم والفنون الجميلة والشعر، فالأجدر بنا أن نفكر في إعداد الازدواج بين ما أوتيته الأنثى من رقة الوجدان، وما أوتيه الذكر من حصانة الجنان فإن في ذلك لذة حياة الصنفين. وإن في تربية شطري النوع الإنساني منعزلين كأنهما لا يشتركان في شيء مما خُلقا لأجله تعجيلاً بقطع الصلة الاجتماعية. وأما تقديم الصبيَّة إلى الصبي وتفهيمه أنها ستكون له رفيقة في العمل والكدح في سبيل الخير والعدل والحق فهو أكثر انطباقاً على مقتضى الفطرة وعلم الأخلاق، وإني لأرجو لكل منهما خيراً كثيراً من وراء هذا الاقتران العقلي.

* * *



الفصل التاسع

سهرة عائلية أمام التلفزيون



سهرة عائلية أمام التلفزيون

كان اليوم هو الخميس.. قالت زوجتي: اليوم نسهر أمام التلفزيـون.. وحتى تشحذ انتباهي، وتصعِّد من همتي في تلبية هـذا المطلب - فهي تعلم أني لا أهتم به كثيراً وأني لست من عشاقه - فاستطردت قائلة: اليوم يوجد فيلم جميل، يأتي لأول مرة على الشاشة الصغيرة، وقد تعذّر على أمثالنا الذهاب إلى السينما هذه الأيام لارتفاع سعرها، أما المسرح فنحن نسمع عنه في الإعلانات فقط، وقد نشاهد قدراً منه عندما تُعرض إحدى المسرحيات في التلفزيون.

* * *

وجلسنا سوياً أمام الشاشة الصغيرة، كان الفيلم معـرَّباً عن قصـة فيكتور هوجو «البؤساء» وسرعان ما تشاغلت عنه بفكرة كانت تدور في رأسي، فإن في قراءتي للقصة الأصلية المرة تلو المرة ما يُغنيني عن مشاهدة مثل هذا الفيلم.

وأما زوجتي - فهي كعادتها - لم تلبث إلا يسيراً، وقـد بدأ النـوم يداعب عينيها، ترفع رأسها تارة ثم ترسلها بقوة من سطوة النوم كأنها في حلقة للذكر. اللهم إلا «بنيّ» الذي كان على غير عادته مشدوداً بقوة لمتابعة أحداث الفيلم.

كان يجلس إلى جِوار والدته، ثم قام من مجلسه وجلس إلى جـواري، يبدو عليه الاهتمام. ربتُّ على كتفه، ماذا بك يا بني؟ كأنك تريد أن تقول شيئاً، استرجعت في نفسي ذكرى قراءتي لهذه القصة للمرة الأولى، وقد بكيت متأثراً، عند مطالعتي لمشاهد البؤس والألم التي تمس شغاف القلوب، وتخترق أنّاتها

الموجعة حنايا الصدور، فلا تملك معهـا إلا أن تذرف دمـوع الحُزن على مـا أصاب البطل من بلايا والآلام.

كـل هذا وأكثـر منه يمكنـك أن تصل إليـه من خلال التصـوير الصـادق للمحنة، والحس المرهف، والشعور النبيل في معالجة الأزمة، والذوق الراقي في اختيار الكلمات الشاعرية، والألفاظ الجميلة التي تنساب في عذوبة ويُسْر، فلا تجعلك تكلّ ولا تملّ، ذلكم هو العبقري العظيم «فيكتور هوجو».

* * *

لم يمهلني «بني» وأنا مستغرق فيما بدا لي من مشاعر، وبادرني بسؤاله:

أبي لماذا نحن فقراء، وقد بدا لي من كثرة اهتمامه أنه يـريد أن يعـرف السبب: لماذا يوجد أغنياء؟

قلت: سمعتك قبل الآن تذكر لوالدتك ما هو أكثر من ذلك «نحن غلابة» وربما منعك الحياء فتلطّفت في سؤالك هـذه المرة، ونـظرت ببصري صـوب التلفزيون ـ فقد أعاد إليّ سؤال «بنيّ» إحساساً بالواقع الذي غاب عني للحظات كنت فيها شارد الذهن وربما لا تبعد كثيراً عما نحن بصدده الآن.

* * *

كـان النوم قـد ملك قبضته على زوجتي، فكفّت عن الحـركـة وأودعت وسادة صغيرة تحت رأسها، مفترشة الأرض، واستسلمت للنوم.

قلت مازحاً: أي بنيّ: هل يهمك أن تعرف الإجابة؟

قال: ليس الآن، فقد حان ميعاد نومي ووجدتها فرصة سانحة لاستجمع قواي في الغد.

* * *

جرى على الألسنة جواب مشهور لهذين السؤالين المتقدمين وهو «ذلك ما أراده الله» وما كنت لأجيبه بمثل هذا التعليل، لأنه فيما أرى ليس من شأنه أن يؤدي إلى أذهان الناشئين معنى كبيراً لعدل الذات الإلهية، وما كنت أيضاً لأدخل معه في أعوص مسائل علم الاقتصاد السياسي وأصعبها. من أجل ذلك رأيت أن أحسن جواب أخرج به من هذه الحيرة أن أقص عليه قصة فقلت:

رُوي أنه كان يوجد في مكان سحيق من بحر لست على يقين من معرفته، جزيرة بنى فيها الأغنياء قصوراً من المرمر، وزرعوا في أرضها بساتين وحدائق ذات بهجة، ربُوا فيها من الأزهار ما يندر وجوده في غيرها، وحفروا بركاً توفيراً لأسباب اللذة، ولم يكن في الدنيا ما يعادل زخرف موائدهم، فقد كان يُطاف عليهم بصحاف من الذهب، فيها ما لذَّ وطاب من أنواع الطعام، وما تحب أن تشتهيه، وكانوا في لباسهم بالغين حد الإفراط في التأنق خصوصاً نساءهم، وكان أولادهم يلعبون البُكْس بكرات من الماس.

* * *

وأما فقراء تلك الجزيرة فكانوا يمشون حفاةً، وكانت بناتهم تغدو كل يوم في أسمال من الثياب، فتطوف بأبواب الأغنياء التماساً لما ألقاه خدمهم من قمامات موائد العشية، ولم يقتصر الأغنياء في سوء معاملتهم على استعمالهم في الأعمال الشاقة الممقوته بل كانوا يحتقرونهم، وبلغوا من ذلك إلى حد أنهم كانوا يحظرون على ذوي الثياب الرّثة منهم أن يتواجدوا في المنتزهات العامة، ولم يكن لهذا الحظر من سبب، سوى خوفهم على بُسُطها السُندسية أن تُدنِّسها أقدامهم، أو خشيتهم أن يكون منظر بؤسهم قذى في عيونهم، وهذا هو الأقرب للحقيقة.

* * *

من أجل ذلك كله غادر الفقراء المدينة ذات ليلة وآووا إلى جبل ليأتمروا بالأغنياء، فكان رأي الشبان منهم، أن يأخذوا أسلحتهم، ويسطوا عليهم وهم نيام في مضاجعهم، ويقتسموا أموالهم، فقام من بينهم شيخ حكيم وتربّص بهم حتى قرت شقشقتهم، ثم قال: إيّاكم أن تفعلوا من ذلك شيئاً لأسباب ثلاثة أبديها لكم: **أولها**: إن الأغنياء يقوم على حراستهم في صروحهم خدم هم شرٌ منهم، وكلاب ضواري أشد فتكاً من الحُراس أنفسهم. **وثانيها**: أني لا أعتقد أن سطوكم هذا عليهم وسلبكم لأموالهم يكون من العدل، لأنهم قد كسبوا هذه الأموال التي تحسدونهم عليها أو كسبها أسلافهم من وجوه شريفة أو خسيسة، ثم ملكوها من بعدهم بمقتضى قوانين ـ أرى مع كوني لا أدرك كنهها كل الإدراك ـ أنه لا بد لوجودها من سبب لأن جميع الناس محافظون عليها مطيعون لأحكامها حتى الآن.

ثالثها: إن ما يجوز أن تنزعوه اليوم من أعدائكم بغلبتكم عليهم يجوز أن يسلبه غداً منكم غيركم بقوته وضعفكم، فعلينا إذن أن نفكر جميعاً في اتخاذ وسيلة أخرى!!

لابد أنكم سمعتم بوجود جزر أخرى في البحر غير هذه الجزيرة التي قضى علينا نحس طالعنا بالولادة فيها، فقد حكى لنا فقراء الملاحين إخواننا الذين يحضرون إلى هنا بسفينتهم مشحونة بالأرزاق ومواد الزخرف التي يستعملها الأغنياء - أنهم رأوا غير مرة في أسفارهم أرضين تنهد من الماء مكللة بالنباتات والأشجار الكبيرة المثمرة، ويستفاد من حكايتهم أن إحدى هذه الجزر خالية من السكان ولا ينقصها إلا إرادتكم حتى تصبح جنة جمَّة الثمار، دانية الجنى، فإن لنا سواعد قوية تساعدنا على العمل، وها أنذا مع شيخوختي سأكون لكم قدوة فيه وأمدكم بنصائحي عند الحاجة، هذا هو رأيي قد أفضيت به إليكم فانظروا ماذا تفعلون؟

* * *

فتلقى جميعهم نصيحته بالقبول، وما قصّروا ثم هاجروا إلى تلك الجزيرة متعاقبين على سفن واهنة صنعوها بأنفسهم من ألواح كانت في حوزتهم، فازداد الأغنياء فرحاً لسفر هؤلاء الغوغاء، ولم يستطيعوا كتمان فرحهم بل كانوا يُصفقون ويجهرون بقولهم: الحمد لله... خلصنا منهم. قلَّما كانت تلك السفن تقلّ الأشخاص المهاجرين لأنهم كانوا لا يملكون شيئاً. استغفر الله! بل حملوا معهم فيها أدوات عملهم.

* * *

مضى على سفرهم بضع سنين انقطعت فيها أخبارهم واختلفت أقوال أهل الجزيرة في شأنهم، فمن قائل بأن البحر ابتلعهم، ومن واهم بأنهم أكل بعضهم بعضاً وبينما هم في هذا الاختلاف، إذ رأوا ذات يوم سفينة مشحونة بالغلال وعروض التجارة، رست على ميناء جزيرتهم فلم يلبثوا أن عرفوا من لهجة ملاحيها وبعض ملامح وجوههم أنهم من سكانها السالفين، وقد أخبرهم هؤلاء الملاحون أنهم قادمون من جزيرة أخرى استقامت فيها أمورهم ونجحت نجاحاً عظيماً، لأنهم ما أن حرثوا الأرض، وأحيوا مواتها بالماء حتى امتلأت

بالزروع والثمار والمواشي، وقد أفاض الله عليهم ـ بفضل جدّهم واجتهادهم ـ من وافر نعمه فاتسعت أرزاقهم وصاروا أغنياء. .

* * *

فلما سمع الأغنياء هذه الأخبار من الملاحين، اعتبروها من الأساطير، وقهقهوا لسماعها قهقهة المجانين.

على أن الملاحين لم يكونوا مبالغين في شيء مما قالوا، فإنه كان يخرج من أرض تلك الجزيرة المقفرة على نحو من السحر حقول مكسوة بالزروع وقرى ومدن وطرق وترع. وكان سكانها في معيشتهم على وفاق تام، تظللهم الغبطة، ويرفُّ عليهم الهناء وقد ضربت عليهم السكينة رِواقها، فكانوا يعتبرون أبناءهم بذوراً لخلقٍ أرقى وأكثر فهماً، ولذلك كانوا يُبكِّرون بتعليمهم العمل وإنشائهم على حبه.

* * *

أصبح الأمر على خلاف ذلك في جزيرة الأغنياء، فكانت الثروة فيها تنقضي من يوم إلى يوم، لأن سكانها لما كانوا من فرط الكِبر والكسل بحيث أنهم يستنكفون أن يتولوا بأنفسهم حرث الأرض وأهملوها، فلم تلبث أن امتلأت عاقولاً[1] في بعضها، وغطّت الأملاح بعضها الآخر فقلّ انتاجها، وتعطّلت جميع الحرَف والصنائع لفقد عمالها، وتبع ذلك زوال مواد الزخرف، وتداعت الصروح والقصور فلم يوجد من الرجال من يستطيع أن يُعيد تشييدها مرة أخرى.

* * *

فزع الأغنياء في بداية هذا الانحطاط إلى صُناع الجزائر المجاورة لهم، فلم يجيبوا دعوتهم لأنهم كانوا على بينة مما كانوا يعاملون به إخوانهم فلم يرضوا لأنفسهم ما قاساه هؤلاء من ضروب الإهانة.

* * *

---

(١) نبات عشبي له أشواك لا يثمر يمكن أن تأكله الجمال.

نعم إن من بقي في الجزيرة من سكانها كانوا يملكون كثيراً من الـذهب والفضة، وأنهم اشتروا من التجار الأجانب كل ما كانوا في حاجة إليـه مدة من الزمن، ولكن كل كنز لا بد من نفاده بالغاً من الكثرة ما بلغ، خصوصاً إذا كان أصله لا يتجدد، ومن أجل ذلك لم يمض إلا بضع سنين حتى غاضت أموالهم، وأنشأوا يندمون ـ ولات حين مندم ـ على مـا فرّط منهم من القسـوة والظلم في معاملة الفقراء.

* * *

صاروا إلى حالة محزنة جداً، فقد تخلى عنهم من كانوا يحوطـونهم من الخدم والحشم لعجزهم عن دفع أجورهم، وعجزت خيلهم عن جرِّ عُجلاتهم لفقدها من كانوا يقومون على تغذيتها وإصلاح شأنها، وكانت نساؤهم تُرى في الشوارع منتعلات نعالاً من الديباج ممشـوقة الأعقاب، ولابسات جلابيب من الحرير المذهب كلها بالية وممزقة، لأن هؤلاء السيدات الجليلات كن يخجلن أن يرقعن ثيابهن بأيديهن، فإذا نظر إليهن ناظر وهن في هـذه الملابس البـالية بهذا الصلف والعجرفة، دعته حالهن إلى الضحك والاستهزاء بهن، لو لم يكن من القسوة واللؤم الاستهزاء بالتعساء البائسين ولو كانوا من الأشرار.

* * *

وجملة القول إن جزيرة الأغنياء، قد أصبحت جزيرة الفقراء المعدمين، كـان القحط يزداد فيها من سنة إلى سنة أخرى، فقد ضعفت الأرض لعـدم ما كان يخدمها من الأيدي، وكان الأغنياء يموتون جـوعاً في صـروحهم، ولو لم يتـداركهم أولئك الفقـراء الـذين أخـرجـوهم من ديـارهم بـالإفـراط في سـوء معاملتهم، ويساعدوهم بما زاد عن حاجتهم، لهلكوا عن بكرة أبيهم.

كان ولدي الحبيب كثير الإصغاء إليَّ في حكايتي لهذه القصـة، وما ان فرغت منها حتى ابتدرني بقوله:

يُستفاد من هذه القصة إذن، أن العمل هو سبب الغِنى والثروة! فـأجبته: إن هذا ليس مطرداً، ولكن أقـل فائـدة له، إنه يُغني الأمم التي تعرف منـاهج العدل وتسلكها».

* * *

الفصل العاشر

التربية والتعليم في المدارس



التربية والتعليم في المدارس

١ ـ مساوئ العصر.. ومكمن الداء

أنا على يقين من وفرة علومنا ومعارفنا في هذا القـرن، فليست هي التي تعوزنا، فقـد وُجدت طـرق سهلة صيّرت مبـادئ العلم وآداب اللغة والفنـون الجميلة قريبة المتناول لجميع الناس، وكل يـوم يتحدث النـاس بانتشـار أنوار العِرْفان بيننا، وهو أمر أنا بعيد عن المنازعة في جلال خطره، وعظيم شأنه.

ولكني لا أرى عليّ حرجاً إن سألت نفسي هذه الأسئلة: هل ارتفع عقل الإنسـان في هـذا القـرن إلى مـدارك أسمى ممـا بلغـه في عصـر الحضـارة الإسـلامية؟!! هـل حصل لـه من قوة النفس، والانبعـاث الـذاتي إلى العمـل والأخلاق الممتازه التي تتجلى في صورة مُجتمعه المظلمة والأعمـال البديعـة أكثر مما كان له العصر؟ هل ارتفعت قوة الإدراك مع انتشار تساوي الناس فيها كل يوم؟

* * *

وأسفي. وأنا التفت حولي، عراني الذهول وملكني الدهش لما أراه من غلبة الأوساط في العقل وكثرتهم، وأسمـع النـاس يـرددون القول، بـأن العقل والاستعداد قد شاعا في هذه الأيام حتى عمّا السابلة والغوغاء، ولو أنهم قالوا إن كل واحد أصبح فيه عقل غيره واستعداده، لكان هذا القول أصـح وأقرب إلى الصواب. نعم إن قرننا قد وصـل إلى طريقـة بديعـة في الإكثار من الـدواليب والآلات المحاكية للفكر، وقامت المهارة في الفنون مقـام الاستعداد الفـطري والعـزيمة، وأزهق التكلّف في آداب اللغـة روح الإلهام والسليقـة، واستنزلت

الدسيسة والخداع في مجرى الحياة وشؤونها الفضل والجدارة عن عرشهما وحلّا محلهما، فترانا الآن مسوقين بلا شعور منا على طريق عام إلى محو ضروب الفضل والرجحان في العقل والخلق محواً تاماً. فعليك أيها الإنسان من الآن أن تقنع بأن تكون كجميع الناس.

* * *

لا شك أن هذه الحالة التي عليها العقول الآن ترجع إلى أسباب كثيرة ليس من غرضي استقصاؤها هنا، منها نظام معيشتنا واهتمامنا المتزايد بالمصالح المادية، وطرق التعبير، ومنها أمر لا يسعني إغفاله وإلا استحققت اللوم، وهو أن التربية بالحالة التي هي عليها اليوم أقرب إلى ستر عيوب الناشئين، وإخفاء مواضع الضعف فيهم ببعض طرق التعليم السريعة التي تكون آلية محضة، أقول: إنها أقرب إلى ذلك منها إلى اكتشاف ملكاتهم وقواهم النفسية وتنميتها، فترى القائمين على التعليم لا يرشدونهم إلى أن الغرض من مجاهداتهم وكدحهم في التعلّم إنما هو نيل الفخر بأن يكونوا عمالاً نافعين، وهو الواجب، بل يجعلون غايتهم الارتقاء إلى المناصب ونيل الغنى، ويقتضون منهم أن يبلغوا إليها، وهم بذلك يبكرون بحمل الأحداث على أن يتبينوا أن المواضعة والتكلّف هما أقرب طرق النجاح وأحسن وسائل الفلاح!!

* * *

٢ ـ كيف نخلق روح العمل والمساواة الحقيقية عند التلاميذ ؟

في بعض المدارس الانجليزية عادة قديمة يدهش منها الأجانب كثيراً، وهي أن التلاميذ وهم من أبناء الأثرياء غالباً بمدينتَيْ أتون وهارو، يخدم بعضهم بعضاً، وليس أمر الخادمية والمخدومية فيها متعلقاً بمكانة التلميذ في قومه ولا بغنى أهله وفقرهم، بل بالأقدمية وبعض الدرجات المدرسية، فيجوز أن يلزم التلميذ الغني الثري تنفيض ثياب التلميذ الفقير الوضيع وتأدية مطالبه، وتنظيف غرفته، وإيقاد ناره، وتسوية طعامه، وحمل كتبه إليه في قاعة الدرس، فتقع إيجاب الخدمة على من تجعلهم المدرسة في الدرجات الدنيا من أقسامها.

* * *

والذي استهجنه من هذه العادة هو ما يكون بين التلميذين الخادم والمخدوم من رابطة التابعية الذاتية، فإن الأقدمين من التلاميذ، يسيرون أحياناً مع من يعدونهم خدماً لهم من إخوانهم سيرة في غاية القسوة، كأنهم جنود أمينين في أول عهدهم بالخدمة العسكرية. أولئك الخدم الصغار الذين كانوا بالأمس أرقاء صبروا على الذل، مستسلمين للجور يصيرون في الغد سادة متجبرين. وهكذا شأن الدنيا...... وبمثل هذا تنتقل جميع أنواع العتوّ والطغيان من سلفٍ إلى خلف.

* * *

لا أرى فيما عدا هذا العيب شيئاً في هذه الطريقة فإنه لا ضرر البتة في أن يقوم بخدمة المدرسة التلاميذ أنفسهم، ولقد عرفت فيما مضى مدرسة....

يديرها رجل وافر العقل، عالي الفكر، اختار هذا المذهب وتيسر لـه أن يجني منه فوائد كبرى في تربية الناشئين. ذلك أنه عهد بمعـظم أعمال مـدرسته إلى جماعات من الغلمان واليافعين، منقسمين إلى طـوائف على حسب مقتضيات أذواقهم وضـروب ميلهم الفطري، وإنهم كـانـوا في هـذه الأعمـال مختـارين متطوعين، فكان الواحد منهم إما لبّاداً، أو كناساً، أو وقاداً للمصابيح، أو موقظاً لإخوانه في الصباح، أو منظماً لقاعة الدرس، وكانوا يتناوبون خدمة المـائدة، وكانت الأعمال المسخّرة التي تقتضي أكثر من غيرها إخلاصاً، أجلّ من غيرها أيضاً في نظر التلاميذ، لأن رئيس المدرسة كان يتظاهر بتمييزها عن غيرها بما كان يوزعه من شارات الشرف على من كان يدعوهم إقـدامهم إلى مباشـرتها، وليتك زرت هذا المكان حتى كنت تشاهد مقدار التحمس المفرح الذي يبديه كل تلميذ في القيام بعمله كأنه فرض اختياري على نفسه.

* * *

كان من مزايا هذه الخدمة البيتية للتلاميذ أنها كانت تسلية لهم من عنـاء الدروس، لأنه كان من رأي رئيسهم أن في المراوحة بين الأعمال استراحة من مشقتها، وكان من غرضه فوق ذلك أن يلقي في نفـوسهم معنى احترام جميـع الوظائف، وكل فروع العمل اليدوي، فإن الإنسان لا يحتقر من غيره ما يباشره هو بنفسه.

* * *

تعرض لي في بعض الأحيان أحوال تحملني على اعتقاد أن ما ندّعيه من حب المساواة ليس إلا رياء ونفاقاً، لأني أرى أناساً لا تفتـر ألسنتهم عن اللهج بهذه الدعوى، ولا يجرون على مقتضاها في أعمالهم، فالناشىء الذي يرى في المدارس أو البيوت أناساً استؤجروا لخدمته، يستنتج من ذلك طبعاً أن الأعمال الشاقة أو الكريهة هي من حظ الطبقة السفلى من قومه، ولا يفيده في محو هذا الاعتقاد من نفسه أن تحدثه في المستقبل عن ضرورة تقسيم العمل بين الناس أو عن غير ذلك من المسائل النظرية الكثيـرة، فإنـه يعلم كمال العلم أن ليس للخدم أن يأكلوا على موائد سادتهم، ولما كان يتوسم في والديه أنهما يعدّانـه لأن يكون من العلماء ويكفيانه بذلك مؤونـة الاشتغال ببعض الأعمـال إلى من

يعرفونها من الناس، فيحكم عليهم بحكمه عليها، وبذلك لا يكون إلا كثير الانسياق إلى احتقار جميع الصنّاع والزراية عليهم.

* * *

صممت أنا وزوجتي على تكليف «بني» أن يعمل كل ما يلزم لفراشه وحجرته وثيابه، ولا أكره أن أراه يمسح نعليه، ويسوّي عند الحاجة طعامه، فإن الفائدة التي تعود عليه من ذلك ليست قاصرة على كونه يتعلم عدم امتهان من يكسبون قُوتهم بمثل هذه الأعمال، بل فيه أيضاً تنمية لحريته الشخصية بتعويده الاستغناء عن مساعدة غيره، فالأسير المسكين من يعجز عن خدمة نفسه.

* * *

٣ ـ رؤيا.. في النوم اللهم اجعله خيرا

رأيتني كأنني ممتطياً جواداً، أسيح به في الدنيا الجديدة، أو بلاد الحق والخير والجمال. . . . وبحسب ما بدا لي من ظواهرها أرى أنها لا بد أن تكون واقفة على تخوم بلاد الرخاء والنعيم أو الأوتوبيا[1].

بصرت في طريقي بحظائر مسيَّجة بأسيجة خضراء فيها قطعان من البقر والغنم وغيرها من الحيوانات المجترة التي لا توجد قط في مراعينا ـ تسوم آمنة لا كلب يحرسها ولا راعي يراقبها، ولاحظت انتظام طرق الري في هذه البلاد وحُسن توزيع الماء بين جهاتها ـ على نمط يثير الاستحسان ويدعو إلى الإعجاب. وكان من مزاياه امتلاء جوّ ريفها بالنسيم البارد والمنعش على ما فيه من حرارة النهار. وشاهدت سلاسل من الهضاب مكللة بالأشجار كانت في تتابعها واتصال بعضها ببعض تخط للرياح والسحاب طريقهما، ضرب الغنى سرادقه حول قرى هذا الريف وظهرت على أهله آثار النعمة والاغتباط. نساؤه حسان، وولدانه أصحاء الأبدان، يبشرون حكومتهم بأنهم سيكونون نسلاً قوياً باسلاً.

* * *

ثم رأيت حواضر هذا القطر، ولم أكن لرؤيتها أقل مني دهشاً لرؤية قراه، ومما أُرشدت إليه في إحداهما بناءان كانا أُقيما في عصر يسميه أهلها الآن عصر

---

(١) الأوتوبيا: كلمة يونانية تطلق على بلاد وهمية جرت أمورها على أحسن ما يتخيل من النظام، ووضعها توماس موريس في كتاب له.

الهمجية. أحدهما سجن والآخر مأوى للمساكين، وقد أصبحا من أهلها خلاء لعدم اللصوص والبائسين. ومع أنهما لم تبق لوجودهما فائدة حفظهما القائمون على شؤون المدينة ليكون فيهما ذكر لتاريخهم.

* * *

حُدِّد في هذه البلاد ما للناس وما عليهم من الحقوق والفروض وما للحكومة وما عليها من ذلك، وامتاز بعضه عن بعض امتيازاً بَيِّناً، ولهذا تجد الرعايا لا يولون حكامهم من شؤونهم إلا ما ليس من مصلحتهم أن يتولوه بأنفسهم، وحقيقة الأمر أن القوانين فيها على قلّتها جداً، وصدورها عن رأي من اختارتهم الأمة نواباً عنها، لا سبيل لها إلا على ما كان من الأعمال متعلقاً بالحكومة، ولما كان الناس جميعاً هم الذين قد سنُّوا لأنفسهم هذه القوانين لحماية كل منهم، كانت مخالفتهم وعدم الامتثال لأحكامهم حُمقاً وسخفاً، على أنهم يأملون تعديلها والتقليل من سلطانها بترقية العلوم وبث أضواء العرفان.

* * *

رأيهم هو حاكمهم المطاع أمره، النافذ قوله. ولم يُعهد أن ملكاً من الملوك الممتنعين في صياصيهم المعتزين بحصونهم، كان له من المعاقل والمتاريس ما يعادل ما حيط به ذلك الحاكم من ضروب الكفالة، وأنواع الضمان المؤيدة له، القائمة على إعزازه، فالقوم أحرار، يفكرون في كل ما يكتبون، ويكتبون كلِ ما يفكرون ـ وقد يدهشهم كثيراً ـ على ما أرى ـ أن يعلموا أن فوق الأرض أمماً في قدرتها أن تستسلم لحاكم وتُلقي بنفسها في قبضة ظالم.

* * *

لاقيت في هذه المدينة شيخاً ـ لا أذكر أين ولا كيف لاقيته؟ ـ وقع التعارف بيني وبينه فأخذ على نفسه أن يشرح لي نظام حكومتهم، ويطوف بي على المعاهد المُعدة للمنافع العامة، لأني لم أر في المدينة قصوراً بُنيت لبعض الأفراد توفية لأسباب لذّاته، وأغرب من ذلك أنه لا توجد مصانع للسلاح أو دور للجيش، وليس هناك ملاهٍ ليلية على الإطلاق.

* * *

لمّا راقني ما شاهدته قلت للشيخ: هل لك أن تخبرني باسم ذلك المعلّم الكبير الذي سنّ لكم هذه القوانين؟ فتبسَّم ضاحكاً من قولي، وقال:

أراني الآن مضطراً إلى أن أقص عليك تاريخنا في كلمات قلائل فاستمع لما أقول: إننا قبل اليوم بنحو قرنين لم نكن أحسن حالاً من غيرنا من الأمم، وآخر ملك تولى علينا ولم نعد نذكر منه شيئاً حتى اسمه (لأن النسيان أحسن عقاب للمسيئين الأشرار) خُلِع عن عرشه بعد حكم أسخط عليه جميع رعاياه، وألّبهم على نبذ طاعته والخروج عليه، ثم عرض الثائرون بعد خلعه صوراً مختلفة وأشكالاً متنوعة للحكومة وكادوا يقتتلون على اختيار حاكم لولا أن آباءنا بما كان لهم من الحكمة والدراية تراجعوا وقال بعضهم لبعض: إن الأولى لنا أن نُرجئ الفصل فيما شجر بيننا، وإن نترك لأعقابنا النظر لأنفسهم فيما هو خير لهم، فإنه لا خير في أحسن الأوضاع، ولا في أعدل القوانين إن لم تجد في أخلاق الناشئن وسيلة لاستبقائها، وحينئذ اتفق القوم على أن يُبقوا من قوانينهم القديمة أكثرها مطابقةً لحكم العقل حيناً من الدهر، وأن يُنشئوا الجيل الجديد في هذه الفترة على حب الحرية والأخذ بها، ثم لعلك لم تر مدرستنا إنها أصل نظامنا السياسي فهيا بنا إليها.

* * *

أخذني إلى مكان على مقربة من المدينة، فما هو إلا أن تجلى لنظري في أشعة الشمس المشرقة بناء كأنه قصر فوق ربوة شجراء، قد عادل اتساعه وانفساح أرجائه ما له من الفخامة والجلال، ولو حاولت أن أصف لك جملته لما استطعت. بُنيَ كل قسم من أقسامه الداخلية على طريقة حديثة في فن العمارة، وبلغ من الجمال، بما وُضع فيه من التماثيل والصور وآثار الفنون بحيث أن جدرانه كانت تكاد تكفي أن تكون وحدها طريقة من طرق التعليم لكون ما حوته يُنقش في أذهان التلاميذ ومشاعرهم. وينقسم هؤلاء إلى عدة أمم يمثل كل منها جيلاً من أجيال الإنسان، وقد وقع ذلك البناء في وسط مشاهد تأسر القلب وتأخذ باللُّب بما فيها من ضروب التباين ووجوه التخالف، فتجد حوله الأجسام والصخور ومساقط الماء وتحته البحر.

* * *

وقفت على إحدى حلقات الدروس فإذا بغلمان يمارسون أنواعاً مختلفة من الرياضات البدنية، كالمصارعة والعدو والرماية بالقوس، وأكثر ما دُهشت له في هذه الحلقة أن معلميها كانوا من هنود أمريكا الحمُر الأصليين كما تبينت ذلك من لونهم ونحافة أعضائهم، وما كان على شعورهم من مواد الزينة الوهمية.

* * *

قال لي الدليل: إن هذه القبيلة المتوحشة لم تأت إلى بلادنا إلا من عهد قريب، وإنما جذبها إلى حدودنا حُسن أخلاق قومنا ورقة طباعهم، فإننا لم نعتبرهم أعداء لنا كما يفعل غيرنا، بل دعوناهم إلى مشاركتنا في نعم الحضارة، وأرشدناهم إلى ما تحصّله لنا من الفوائد والمزايا مبينين لهم مقدار رجحانها على البداوة. ولما كنا لا نجهل ما لهم من المواهب الفطرية التي نحن محرومون منها عرضنا عليهم معاوضة المنافع ومبادلة المرافق، فقبل فريق منهم ذلك منا، وها هم أولاء الآن يروضون أبناءنا على احتمال الآلام الجسدية غير مغضنين من جباهم، وعلى استعمال أبصارهم وأسماعهم في اجتناب ما ينصب لهم من الحبائل، وإبطال أثر ما يُكاد لختلهم المكايد. ويعودونهم البسالة في ثني أعضائهم وليها موافقة لسلطان الإرادة، وتعرّف أخلاق الحيوانات وعوائدها في حالتها الوحشية.

* * *

وفيما نحن نجول داخل هذا المكان الذي هو منقسم ـ كما قلت إلى أقسام مختلفة للتربية والتعليم شهدت أحد الأعياد التي تقام في هذه الأقسام التاريخية أو العلمية من حين إلى حين، فخيل إليّ أننا في أثينا عاصمة بلاد اليونان إن لم أكن واهماً، وأبصرت قلعتها المسماة بالأكروبول شاخصة أمامي على صخرة يعلوها معبد وتماثيل وآلهة صُنعت من النحاس الأحمر والمرمر، ورأيت في الجانب الغربي لهذه القلعة دهاليزها التي أقامها بركليس[1]. وكنت أشاهد طوائف من الفتيان في أزياء يونانية يشخصون اليونان في أطوارهم

---

(١) بركليس أحد رجال حكومة أثينا الأقدمين.

وأحوالهم تشخيصاً يقرب من الفطرة، ويتكلمون بلغتهم، ويمثلونهم في تنزههم في المدينة أو غدوِّهم في مرافىء بيريه[1] ومونيخى[2] وفالير[3]، فاستغربت ما رأيت مع قلة استغراب الحاكم، وأقسمت بأثينة بروماخوس لأكتنهن هذا السر.

* * *

فلما رأى صاحبي شدة ولعي بمعرفة حقيقة ما رأيته قال لي: إن الأمر في غاية السهولة: ذلك أننا لما تبين لنا بالاختبار، أن التاريخ في تعليمه للأحداث يمر بأذهانهم مرور الظل غير تارك له آثاراً بيِّنة، اجتهدنا في أن نجعل له جسماً تُخلدّ فيه صورته، فنرى تلاميذنا لا يقتصرون في تعلمه على مطالعة ما كان في العصور الخالية، بل هم يعيشون في تلك العصور.

فقلت له: لا بد أن تكون جمهوريتكم قد بلغت من الثروة غايتها حتى تقوم بنفقات هذه المعاهد. فكان جوابه: إنها غنية لمهارتها في طرق الكسب ولأنها هي التي تدبر نفقاتها بنفسها. على أني أرجو أن لا تُخدع بما تراه، فإن ما تظنه بذلاً للمال وإسرافاً فيه هو في الحقيقة تدبير له وتوفير، ولو صح ما نسمعه عن أوروبا القديمة لكان ما تنفقه أممها على حكوماتها في جانب التبذير، وما تنفقه على التعليم العام في طرف التقتير، وأما نحن فأمورنا تجري على خلاف ذلك، فحكومتنا لا تكلفنا أو لا تكاد تكلفنا شيئاً وننفق كل أرزاقنا على مدارسنا، فكان لنا بالسير على هذه السُنن ما يسمى في عُرْف التجارة صفقة رابحة ولله طريقتنا في التربية! فإننا ببركتها استغنينا عن اتخاذ جيش دائم وكهنوت وغيرهما من الأثقال التي توقع الحكومات في هوّة الفاقة وتودي بها إلى الخراب.

* * *

هذه الأمة التي تاه عني اسمها الآن، لا تقصد في تربية عقول أبنائها وتقويم طباعهم إلى اعدادهم لأن يبتغوا في مستقبلهم نظاماً مقرراً كائناً ما كان، بل لقد عقدت النية على أن تقبل ما ينتج من التربية الحرة المؤسسة نواميس الكون وأصول العلم من الثمرات، فبعثها إقدامها على أن تعهد بمستقبل بلادها

---

(١)، (٢)، (٣) كلها مدن يونانية فيها مرافىء.

إلى معارف الأجيال الجديدة وعلومهم، فهي تعتبر المدرسة أمة في سبيل نشأتها لها قوانينها كما أن للحكومة قوانينها، وترى تلك القوانين كأنها مقدمة لهذه، وتبكر بتعليم التلاميذ ممارسة ما يتحلى به الرجال من الفضائل القومية.

* * *

ليس لمعلمي المدرسة على التلاميذ أدنى سبيل إلى التأديب، ولكنهم لا يسلمون عليها بما يقترفونه، فالمخالفون يحاكمون إلى محكمة ينتخب أعضاؤها من إخوانهم لمدة معلومة، ومن مصلحة هؤلاء الأعضاء أن يعدلوا في أحكامهم وأن لا يطيعوا فيها دواعي الهوى والغرض لعلمهم أن الاعتداء على حقوق الناس قد يعود عليهم ضرره في الحال أو في المال. ويقوم أمام المحكمة محاميان أحدهما من جانب المدعي والثاني من جانب المدعى عليه فيبنيان لها وقائع الدعوى بالرزانة والوقار، ثم يصدر المحلفون المتطوعون أحكامهم وهي واجبة الاحترام على الدوام، وما يحكم به من الجزاء يصير على كونه غاية في الخفة شديد الارهاب والزجر، لأنه يؤدي إلى لوم المحكوم عليه وتأنيبه من المدرسة جميعها لا من معلميه فقط.

يقوم الصبايا التلميذات بهذه المدرسة في قسم آخر فيها غير قسم الصبيان، ولكنهن يحضرن معهم في غرف التعليم بعض الدروس العامة التي تلقى نهاراً.

* * *

قال لي الشيخ: إننا نعول كثيراً في طريقة تربيتنا للناشئين على ما للنساء من التأثير المعنوي في النفوس، فهن اللاتي نعهد إليهن بتوزيع الجوائز والمكافآت على التلاميذ، فترى المهرة من هؤلاء في الرياضات البدنية يختبرون أنفسهم أمامهن في ساحتها ببعض الحركات التي هي مظاهر القوة والبأس، والمستعدين منهم لأن يكونوا خطباء المستقبل يمثلون بين أيديهن على منبر المدرسة ويثير بعضهم على بعض في ميدان الفصاحة والبلاغة حرباً عواناً، كل ذلك في سبيل إرضائهن وتهييج إعجابهن، ولما كان المعروف فيهن أنهن صائبات الرأي سديدات الحكم في مواد الفنون كان معلمو المدرسة تطيب أنفسهم بالركون إلى رأيهن في امتحان الشعر والموسيقى والتصوير، فإذا صرن

محكمات في الذوق أعلنَّ حسان الأعمال ونوّهن بقدرها وتوّجنها تاج الشرف والفخار. كذلك يعتاد أحداثنا أن يستشيروا النساء ويسترشدوا بآرائهن ويلتمسوا تصديق وجدانهن لحسن أعمالهم فيما تبديه لهم من ترقبُهم منهن من دلائل استحسان هذه الأعمال بتلقيها بالابتسام والبشاشة وينشؤون على أن يعتبروا عيون ربَّات الجمال مرايا تتمثل لهم فيها الفروض التي كتب عليهم أداؤها.

* * *

لا يزال صدى الكلمات الأخيرة التي سمعتها من ذلك الشيخ يرن في أذني، إذ قال لي في نهاية حديثه: «لو طال زمن مكثك بيننا لشاهدت من مستحدثاتنا ما لا أشك في أنه كان يبعث في نفسك دواعي الدهشة والعجب، فحسبك أن تعلم كيف أننا قطعنا ما كان يربطنا بماضينا من قيود الذل والبؤس والاستعباد الذي كان كالثلج جموداً وبرودة ونفياً لحرارة الحياة، وأن تعرف أن الأمم الحرة إنما تنشأ برجالها الأحرار، وأن آباءنا الأحرار لم يخطئوا إن التمسوا في وجدان كل إنسان أقوى ناصر على الاستبداد، لاعتقادهم أن أحسن الحكومات أقلها وجوداً.

فتراهم قد فضلوا أن ينقشوا في نفوس الأحداث وجدان الحق والعدل لا تغيره الحوادث ولا تمحوه الكوارث على أن يدونوا لهم قانوناً نظامياً في كتاب ربما أن رياح الفتن وعواصف الثورات الداخلية كانت مزمنة من زمن بعيد. وجملة القول إن الحكومة عندنا ليست هي التي تدير المدرسة بل المدرسة هي التي توجدها وتنشئها.

٤ - تطبيق العلم برؤية المصانع والمناحت[1] والمتاحف وغيرها وفوائد المشاهدة العملية عند التلاميذ

أرى أن القائمين على تربية الناشئين قد أفرطوا في التفريق بين العلم وبين ما يربطه بالصناعة من الروابط، ومع كوني لا أنكر أن ما في المدارس من المعامل الكيماوية والمجموعات التعليمية، والدروس العامة هو من المساعدات العظمى في التعليم، وأقصد قصداً أكيداً أن استعين به على تعليم ولدي في مستقبله، تراني أفضل أن اختلف به إلى معهد آخر تتمثل فيه أمامه الأعمال وتتراءى له الوقائع.

* * *

فيرى ويشاهد على الطبيعة المصانع، فمثلاً إذا درس الطالب عنصر الحديد.. ذهب إلى مصانع الحديد في حلوان وشاهد الفرن الحراري لكي يرى بعيني رأسه كيف يتم استخراج هذا المعدن من خلال العمليات التي يمر بها. وزيارة المصانع البتروكيماوية عند دراسته الكيمياء العضوية ومركباتها، وغيرها والذهاب إلى المشرحة، ورؤية تشريح جسم الإنسان عند دراسته الأجهزة المختلفة للإنسان، وزيارة المتاحف مثل المتحف المصري القديم، والمتحف الجيولوجي وغيرها، كما أن مشاهدة المتاحف تعتبر واسطة ينتقل بها الذهن من علم طبقات الأرض إلى فن العمارة، فإذا رأى التلميذ المعابد القديمة

(١) المحاجر التي تقطع منها الأحجار بواسطة البارود ثم تشكل بواسطة عمال النحت لعمل التماثيل وغيرها.

والقصور، واستحضر نوع حجارتها في ذهنه، لأدرك من فوره الصخرة التي نحتت منها، والمخلوقات العضوية القديمة التي صارت هذه الصخرة رمزاً لها.

* * *

العلم الذي يحصِّله الإنسان بعرق جبينه ربما لا يكون واسعاً ولكنه متيناً راسخاً. خذ لذلك مثلاً الزهرة التي تجنى من غور بعد اقتحام ما كان دونها من العقبات، يكون لها في ذاكرة جانيها آثار أقوى مما يكون لزهرة رآها بلا عناء مجهّزة محفوظة في إحدى صحف المجموعات النباتية، وما يجمعه المرء بنفسه من الحجار والصدف على شاطئ البحر يدرّب بصره على إدراك ما يميزه من صفاته الظاهرة، أكثر مما يدربه على ذلك ما يوجد منه مرتباً ومعنوناً في رواق معدٍّ له، فالبحث يُكسب البصر واليد دُربة ومرانة.

* * *

أنا لا أشك في أن التجارب الكيماوية والطبيعية مفيدة لمن مُنِحُوا الميل إلى التعلم، ولكني أرى أن عامة التلاميذ قد يبدون من الارتياح إلى العلم معمولاً به في الصناعة ومن الانفعال بما يرونه من آياته فيها أكثر مما يبدونه لمثل هذه التجارب، وقلَّما يوجد معمل من المعامل الكبيرة إلا وهو أيضاً مدرسة كبرى للعقل، نعم قد تأخذ مشاهده لأول مرة ببصره اليافع، ولكنه متى كان فيه شيء من الشوق إلى العلم لا يلبث أن يسأل عن سبب هذه الحركات الذاتية، وكما للمواد بعضها في بعض من التأثير المتناوب، وبالجملة يعرف سر الطرق التي تحيل المادة الفطرية إلى محاصيل صناعية.

* * *

ليس أحقر الأشياء أقلها إثارةً للشوق في صُنْعِهِ دائماً، ولا ملاحظته أقل جدوى في التعليم، فعلبة الكبريت والدبوس والشمعة ـ كما بينه فاراداي[1] حق البيان، لها بعلمي الطبيعة والكيمياء تعلّق يدركه كل واحد من الناس ويعرفه لأول نظرة.

* * *

(١) عالم انجليزي من أشهر علماء الطبيعة ولد عام ١٧٩٤ وتوفي عام ١٨٦٧م.

أنا أعلم أن تحصيل علم عدة من الصناعات والاختصاص به، يقتضي أن يعيش الإنسان أضعاف عمره، ولذلك لا أرجو من «ولدي» إذا رأى غيره يشتغل بحرفة أن يحيط خبراً بأسرار العمل فيها، على أن الشبان أقل حاجة إلى الوقت منهم إلى غيره، فلو أن القائمين على التعليم أحسنوا في توجيهه إلى غايته ما شككت قط في أن الناشئين في هذه السن من عمرهم يتعلمون في المعامل الشيء الكثير.

* * *

وجملة القول إن لدينا في جميع المدن الكبرى بل وفي القرى كثيراً من معاهد العمل التي لو اختلف إليها الناشئ لأدرك بالعيان والحس بعض قوانين المادة، مثلاً، أهم من ذلك يتعلم حُب العامل وتعظيمه. ولكان أقل فائدة له من ذلك ملاحظة طرق الصناعة أو الزراعة إن لم يباشر شيئاً من أعمالها بيديه، وتلك مزية أخرى له، فليت شعري هل يصح في نظر العقل أن تُغفل هذه الينابيع المتدفقه للعِرْفان وتُبْخس حقوقها من العناية، وتكون دراسة الألفاظ هي موضوع الاهتمام والرعاية!!

* * *

متى وكيف يتعلم التلميذ اللغات الأجنبية؟

أنا أُحب أن يرى «ولدي» قبل تعلّم اللغات الأجنبية شيئاً من العالم، وأن يتفتق ذهنه باحتكاكه بالصناعة ودراسته تاريخ الموجودات، فإن كل وقعة روقبت تولد في نفس مراقبها لذة وتنمي فيه شعور الحاجة إلى المعرفة، فإذا حصل له بكسبه بعض معان بيِّنة صار بهذه الواسطة أحسن استعداداً لفهم ما يتلقاه عن غيره من المعاني ولو ظهرت في صيغ مُبهمة من الألفاظ.

* * *

ثم إن من أسباب طول المدة التي تقضى في تعلّم اللغتين الانجليزية والفرنسية ـ على ما أرى ـ أن المربين يعلمونهما التلاميذ قبل أن يطلعوهم على شيء من أحوال بلادهم!! والإنسان لا يُحسن تعلّم لغة قوم إلا في بلادهم. ومن أجل ذلك سأهتم عند تعليمهما «ولدي» بأن أجعل له من آثار أهلهما

وتاريخ قومهما بلاداً يتعلمون فيها. وفي هذا المقام تظهر فائدة إنشاء معاهد التعليم التي هي من قبيل القصر البللوري. نعم إني على يقين من أن مشاهدة ما يكون في مثل هذه المعاهد من التماثيل والصور ومُثل المعابد والمباني الأثرية العامة لا تُعين التلميذ على فهم شعر شكسبير وفيكتور هوجو!!، ولكن تعليم الانجليزية والفرنسية إذا اقترن بتعليم تاريخ قومهما وما يشهد لهما من دلائل التقدم، أفضل كثيراً مما لو عُلِّمتا مجردتين.

ذلك أن لفنون الرسم من التأثير في نفوس الناشئين ما هو فوق المظنون بها كثيراً بسبب احالتها للعقل وسياحتها بالنفس في التاريخ، ولأن سن المراهقة هي السن التي يسهل فيها اندماج التلميذ في شخص غيره لسبب سهل الإدراك وهو أن معنى الاستقلال الذاتي لا يظهر إلا قليلاً في هذا الطور من الحياة.

* * *

٥ ـ أثر التقليد والذاكرة[١] في تربية الناشئ

مثل هاتين القوتين في فتنة العقل والتغرير به كمثل الفتانات الخرافية التي كانت تظهر في بحر صقلية وتستهوي الملاحين بشجى صوتها فتوردهم في شعابه موارد التهلكة، فإنهما بعلوّ مكانتهما وجلال خطرهما في دراسة اللغات، وبخداعهما العقل أحياناً في آدابها بما يأخذانه عن الغير من محاسن القول وطرائفه يأكلان الاستعداد الحقيقي أكلاً، وقد يكون الذنب في ذلك على المربين دونهما لما ينهجونه من طريقة التربية، فإن أحداً لا يرتاب في كون هاتين القوتين من المواهب الخلقية الميمونة، بيد أن هذا لا ينبغي أن يكون سبباً للإفراط في تنميتهما فإنك ترى التلميذ الذي يربى على طريقة الكتاتيب يصفُ لك بما قرأه في الكتب أشياء لم يرها في حياته، ويتفوه أمامك بجمل من القول المنثور أو المنظوم تدل على ضروب من الوجدان لم يشعر هو بشيء منها قط، ويبدي من الهياج والانفعال في بعض أحوال لا علاقة له بها من حياة غيره ما لا أثر له في نفسه، ولو أنك سألته أن يتغنى بذكر الأشجار وظلالها، والأنعام ورُعاتها، والربيع وأزهاره، لوجد فيما يذكره من محفوظاته جميع ما قاله الجاهلون من النعوت والأوصاف!! ومع أنه قد يكون خيراً له أن يذهب إلى المزراع ويرى بنفسه ما يحصل فيها، وكيف يحصل؟ تراه شديد الاحتراس من

(١) الذاكرة: ملكة الحفظ بدون فهم، والتقليد: المحاكاة أي الترديد بدون فهم وهي طريقة الكتاتيب في بلادنا ـ وهي طريقة عقيمة في التعليم على طريقة المثل الخاطئ: التكرار يُعلم الشطار بدلاً من بث روح الفهم في الناشئ.

موافاتها خشية أن يخسر صحبة دائمة لسيبويه وأبي الأسود الدؤلي، وابن مالك، وما كتبه الجاهليون في الشعر والأدب، وما تواضع عليه الأقدمون من الصور اللفظية لتأدية ما كان يعرض لأذهانهم من المعاني والأفكار، وإذا استوصفته قتالاً انبرى يصف لك ما استعمل فيه من الآلات، وكيف كان اصطدام الجيش بألفاظ مطنطنة، وعبارات مجلجلة، يستعير فيها شعر عنترة العبسي وغيره من قتّالي السيوف الذين ذهبوا مع الغابرين!!

* * *

عرفت فيما سبق تلميذاً أزهرياً كان يبدو عليه كثير من مخايل النجابة، نال جائزة عظيمة مكافأة له على قرضه شِعْراً وصف فيه زج سفينة في البحر، وهو لم ير في عمره سفينةً ولا بحراً!!

* * *

نعم إن الشبان في هذه الأيام لا يكادون ينفلتون من المدارس إلا وهم رافضون لآثار السلف نابذون لها ظهرياً، غير أنه لا معنى لهذا إلا أنهم يعتاضون عن مُثُلِ الغابرين مُثُل الحاضرين، لأن محوطيّات التقليد وغضونه من النفس وإرجاعها إلى صقالتها الفطرية ليس من السهولة بالمقدار المتوهم، فإننا كل يوم نقرأ في وصف الكتّاب والشعراء المبتدئين قولِ واصفيهم في الواحد منهم أنه نابغة يفتش عن نفسه، فليقل لي بربه هذا الفتّاش أين أضلّ نفسه حتى أصبح ينشدها؟؟!!

* * *

لاحظنا أن الطالب الأزهري وهو يعتمد منذ نشأته على هاتين القوتين، التقليد والذاكرة ـ حيث يُمرن عليهما منذ الصغر في الكُتَّاب ـ يتعثر كثيراً في فهم مادة الكيمياء الحيوية[1]، على سبيل المثال؛ لا يفقه شيئاً من المعادلات الكيمائية مع أن كلاً منها تمثل صورة للبناء الأساس للمادة الحية، ولأنها تتطلب روح الفهم فهو لا يُقبل عليها، ولا يهتم بها، وإذا به يحفظ قليلاً من المعلومات النظرية، ومع أنها تناسب ميوله الفطرية التي درج عليها؛ إلا أنه يحصل عليها

(١) يدرس الطالب هذه المادة في السنتين الأولى والثانية بكلية الطب.

بعد لأي، وجهد شاق من الترديد المُشين مقلداً ما ورثه عن مُعلِّميه الأولين، وما تعوّد عليه منذ الصغر، وسرعان ما يكابده النسيان، فإذا حان موعد الامتحان الشفوي، وهو أساس ولازم لطالب الطب، نكص على عقبيه نكص الجبان، وفرَّ منه فرار الرعديد!! وتكون النتيجة رسوباً مستمراً لا حيلة له فيه، وإنما العيب كل العيب يقع على عاتق الذين ربوه على هذه النشأة، وأسلموا قياده لهذه الطريقة العقيمة البالية! والتي لا بد من تغييرها تغييراً جذرياً أو إلغائها كلياً لأن مضارها ـ كما علمنا ـ أكثر من نفعها ـ على التعليم والخُلق معاً. ولا سبيل إلى التقدم أبداً في ظل هذه الطريقة، حيث ينتقل الطالب من الكُتَّاب الأول إلى الكُتَّاب الذي يليه ثم الذي يليه، ويقوم بالتدريس عليه مدرسون رسخت في أذهانهم هذه الطريقة العقيمة، في حين أنه يتلقى علوماً تحتاج إلى روح الفهم أكثر منه إلى التقليد والذاكره!

* * *

فإذا انتقل إلى الجامعة.. فهناك الأساتذة الذين درجوا على الفكر.. وعلوماً أكثر تقدماً مبنية على روح الفهم وليس على التقليد الأعمى والذاكرة.. فيتعثر الطالب الأزهري في الكليات العملية، وكلية الطب واحدةً منها، هذا هو الداء... فهل من سبيل إلى علاج؟

إن تربية تكون بدايتها إضلال وجدان الاستقلال إلى حد أنه ينبغي لأجل الاهتداء إليه تلمسه سنين طويلة لمن الغرابة بمكان!! ولا سبيل إلى النهوض من هذه الكبوة إلا بإعادة النظر مرة أخرى في التعليم الأزهري من أساسه، ثم ألا يستوجب ذلك منا دراسةً شاملة، بعيدة عن التعصب الأعمى يكون الهدف منها النهوض بالمستوى الكلي للتعليم في الأزهر على طريق التقدم.. والله المستعان.

* * *

وقبل أن أجعل البحث في مُثُلِ الأقدمين في مكنته سأعنى كل العناية بتنبيه الناشئين إلى أن هذه المُثُل لا تُقلَّد، فإنه من السخف المحقق أن نباري الغابرين مباراةً نحن على يقين من غلبنا فيها من قبل أن ندخلها، وكيف لا نكون مغلوبين لهم ونحن نرضى لأنفسنا طريقتهم في الكلام والكتابة؟ والذي لا

غضاضة علينا في أخذه عن الأقدمين إنما هو روح آداب لغتهم وما يناسب كل زمان وكل قوم من أساليب الإنشاء وترتيب المعاني والدقة في التعبير عنها، وانتقاء الألفاظ اللائقة بها. فكما أن من يعاشر بعض خواص الأجانب يقتبس شيئاً من خصائصهم بغير أن يكون ذلك موجباً لمشابهته لهم بحال من الأحوال، كذلك معاشرة الأقدمين بواسطة ما تركوه من آثارهم توحي إلينا شيئاً من عوائد العقل واللسان المناسبة لسائر الأقوام المستضيئين بضياء العِرْفان.

* * *

نحن على ما فينا من النقائص كلها أحسن من الأقدمين حالاً وأرفع شأناً، وإن جاز علينا التدلي والانحطاط كما جاز عليهم، لأن فينا قوة النهوض والارتفاع إلى ما انحططنا منه. وإن لنا عليهم لفضلاً كبيراً بسمو وجداننا، فكأننا بتأخرنا عنهم في الوجود قد أخذنا على أنفسنا أن نكون خيراً منهم، لأن وجدان الواجب كوجدان الحق ينمو ويرتقي بمرور الزمان، ولعمري إنه لا يفكر ما للحضارة الحاضرة من ضروب التأثير في النفوس والعقول إلا مكابر خبيث الطوية!، ولست أريد بما قلته إننا أصبحنا بهذه الحضارة أكثر من الأقدمين أخلاقاً فاضلة، وطباعاً باسلة، ومعارف واسعة، وتحمُّساً في الميل إلى الحُسن. كلا! على الإطلاق، بل أُريد أن معاني العدل واحترام حق الغير قد شاعت فينا ورسخت في نفوسنا فصرنا أكثر اهتماماً بمن يخالفوننا في العناصر والأحوال القومية والأقاليم وألوان الجلود، فنحن الآن من حيث كوننا من بني الإنسان أقل من الأقدمين بعداً عن كل ما له مساس بالإنسانية.

التقليد المشين ـ سواء قلّد فيه الغابرون أو الحاضرون ـ لا يقتصر سوء أثره على إضعاف الذوق والميل إلى الفنون بل يكسب الناشئين أيضاً شرف النفس وكرامتها: فلشد ما ينخدعون بما تؤديه لهم الألفاظ عند قبولهم إياها من المعاني صحيحة أو فاسدة لأن اساليب الإنشاء والألفاظ والجمل تفعل في نفسهم ما يفعله السحر الحقيقي، فتراهم يتوهمون أنهم يتفكرون فيما يقولون ويكتبون، والحق أنهم يرددون ما فكّر فيه المفكرون، ولعمري! إن هذا هو أصل بعض الأباطيل التي تحاول من قرون عديدة إطفاء نور العقل. ذلك أن ضروب الاستعباد متلازمة فمن قبل واحداً منها فقد أخذ على نفسه الانقياد إلى

جميعها. ألا ترى الشاب المتعلم الذي اعتاد تقليد ما يصفه المقلدون بـالمُثل الحسنة، يصاحبه في سيرته وأطواره روح اللين والانقياد الذي أَلِفه من التقليد فتجده يجبن ويفزع عن كل عزيمة ذاتية.

* * *

نعم إنه قد يخاطر بحياته في مبارزة، أو يعرّضها للهلكة في ساحة قتـال لأنه يرى ذلك مستحسناً في نظر الناس، ولكنه إذا دُعي إلى مقاومة عادة بربرية، أو تأييد حق قلَّ ناصروه، ورأى أن من وراء ذلك الاستهداف للسخرية والزراية عليه، نكص على عقبيه نكوص الجبان، وفرَّ فرار الرعديد!!

* * *

مثل هؤلاء المخلوقين المجردين عن ذواتهم يجدون طريق عيشهم ذلولاً ويأتيهم رزقهم بلا نصيب ولكن ما أكثر ما يسومـون أنفسهم من الخسف؟ وما أحطّ ما يسفلون بها إليه من دركات الذل؟!

عرفت إمرأة برْزةً[1]، محبوبة، حسنة المحاضرة، وكانت أرملةً، ولها ولد كان قُبْلة آمالها، فبدا لها يوماً من الأيام أن تنشئه على أحسن آداب المواضعـة المعروفة، فرأت أن الاستشهاد بأقوال الكُتّاب الأقدمين في المقامات المناسبة في المحاورة، والتمثُّل بأشعارهم، وإيراد أمثالهم من الأمور التي لا بأس بها، بل رأته يكسو المحاور إذا كان حسناً بـرداً من الخطر، ويلقي عليـه مسحةً من جلال القَدْر، فأرسلت ولدها إلى المدرسة فغادرها كيوم دخلها، خفيف العقل، لم يستفد من العلم إلا قشوراً، محبوباً عند الناس، ولكونه أوتي ذاكرة مباركـة كـان يتعلم في كل مـوضوع، ويناقش كـل شيء، ولا يُبـدي رأيـاً إلا قـوبـل بالاستحسان، لأنه يسهل على كل إنسان أن يرضى الناس عنه إذا سلَّم لهم ما يقولون، ولم يعارضهم في شيء من آرائهم، فكان ثرثاراً فـاقد الخُلُق، حسن الصورة عقيم الفكر.

* * *

---

(١) البرزة: المرأة الجليلة التي تظهر للناس ويختلف إليها القوم.

أرادت والدته أن تصيِّره رجلاً من الأكياس، ومن مشاهير المجتمع، وإن احببت أن تعرف ماذا صيَّرته؟ قلت: إنها صيَّرته طُفيلياً.

* * *

ولما لم يكن هذا هو الفلاح الذي أرجوه «لابني» وكان الذي يعنيني من أمره قبل كل شيء إنما هو حفظ كرامته وشرفه من حيث هو إنسان، كان نصيب هذه الطريقة من محض الإعجاب بها دون أن أرضاها لتربيته.

* * *

وقد أحسنت الحكومة صُنعاً بقفل باب التوظيف الإجباري للمؤهلين بإلغاء القوى العاملة، وهيأت بذلك أمامهم سبيل الاختيار الحُر المستقل للوظائف التي يرغبون القيام بها حسب ميولهم واستعدادهم، وإن كثيراً من هؤلاء يتحيزون إلى فئة الآخرين بحرية النظر ويتضاعف عددهم كل يوم، ولكن لشد ما يلاقون على ذلك من العقاب بسبب قلة المعروض من الأعمال، وازدياد مصاعب الحياة.

* * *

٦ ـ المؤلفات المفيدة للناشئ وكيف يختارها ؟

أجد في نفسي انبعاثاً كثيراً إلى اعتقاد أنه لا شيء أضرّ على كتب الأقدمين، وأدعى إلى هجر مؤلفاتهم، من إطراء المُعلِّمين إياهم، واعتيادهم الإعجاب بما كتبوا!!

* * *

ذلك أن هؤلاء بإلزامهم الناشئ حفظ ما يختارونه له من هذه المؤلفات، وإرشادهم إياه إلى ما يجب عليه أن يراه فيها من ضروب المحاسن خشية أن يقصِّر في احترام آثار سلفه، وإكراههم له على ملاحظة جميع ما فيها ـ حتى علامات الفصل والوصل ـ بذلك كله لا يفلحون غالباً إلا في أن يُكرِّهوها إليه، وهي أحسن أعمال عقل الإنسان. فالإفراط في الوقاية من جانب المعلم يصير سبباً للضعف من جانب المتعلم، وإفراط ذلك في إعجابه بما يعلمه يذهب بالحمية من نفس هذا فيما يتعلمه.

* * *

والمقصود من التعليم على أي حال أنما هو إنشاء القوة الحالمة في نفس الناشئ، وأنا في شك من بلوغ هذه الغاية بالجري على منوال تلك الطريقة، فإنه على فرض وجود التلاميذ الذين يكون فيهم من الامتثال ما يكفي لأن يروا الحُسن فيما يُمدح لهم، والقُبح فيما يُذم (وفي التلاميذ من هم كذلك) لا تكون أذواقهم من أجل ذلك أسمى من أذواق غيرهم، ولا أكثر منها دربةً، بل هذا مما يدعو إلى سلبهم قوة تمييزهم للأمور بأنفسهم، فتكون همَّتهم في مستقبلهم

مصروفةً إلى تلقي آراء من تعتبر آراؤهم حُجةً من الناس، وليس إلى النظر في الأمور والحكم عليها حُكماً مستقلاً.

* * *

سأدع ابني وشأنه في انتقاء كُتبه فلا أُجنِّبه إلا ما يكون منها ضاراً بالأخلاق، لأني أود أن يكون هو صاحب الخيار فيما يُفضِّل في نظره من كتب الآداب، فإذا ضلَّ ذوقه في الاختيار عوّلت في رده إلى الصراط السويّ على ضروب نمو عقله، لا على ما يدعو إليه كدرس من أنواع التوبيخ والتأنيب، ومع كوني لا أَضنُّ عليه بالإرشاد متى سألني إياه تجدني أقصد أن يلتمس فيما يطالعه تنبيه أفكاره، وتربية ضروب وجدانه الذاتي.

* * *

نعم إني قد أشتهي أن أقدم له بعض كتب مخصوصة، واغتبط لو أن اتفق معي في التأثر بما فيها، غير أني لا أجدني مُحقاً في اقتضاء ذلك منه، لأن الإعجاب بالشيء من أجل أن يكون مفيداً لا بد أن يصدر عن نفس المُعجب، ولأن الإنسان في كل طور من أطوار حياته منفرداً كان أو مجتمعاً يتصور الحُسن كما لا يطابق ـ بالضرورة ـ بعض أحوال تتعلق بنفسه أو بمنافع أعضائه. يدلُّك على ذلك أننا لا نكاد نعرف الآن ما قرأناه في عهد شبيبتنا من الكتب ولا مؤلفيها، ولا نحسُّ بشيء من الميل إلى كتب الأدب التي طالعناها في ذلك الزمن، ولم يبق من الشعراء أو الكُتّاب الذين كانوا أساتذتنا فيه بكتبهم، من يصحبنا في شيخوختنا إلا النزر اليسير.

* * *

الفصل الحادي عشر

السفر.. سبيلك لتجديد نشاطك وهو ركن من أركان التربية



السفـر.. سبيلك لتجـديـد نشـاطك وهـو ركن من أركــان التربية

ليس كل ما يحيط بالإنسان مما تتناوله مشاعره يصلح على السواء لحفظ صحة عقله، والناس وإن اختلفوا في درجات تـأثرهم بفقـد ما هم محتـاجون إليه، لا أظن أنه لا يوجد منهم من يتأثر البتة بما يكون من العيوب والمناقص في المناظر الريفية التي يراها على الدوام، اللهم إلا قليلاً لا يعتد بهم، وإذا صح ذلك فأشد ما يبلغ هذا التأثر السيىء من أذهان الناشئين، فإن الرجل البالغ قد حصل له من قوة النفس والخيال مـا يكفي لمفاعلة مـا يحدق به من الأشيـاء، فحسبه في معظم الأحيان أن يخترق قلبه شعاع من أشعة الحب، أو يكون في نفســه وجدان قـوي، أو تجتمع في ذهنـه بعض المعاني حتى يـرتقي بالـريف المبتذل الذي لا قيمة له في ذاته من شيوع الابتذال، إلى الاختصاص بشـرف الخيال، وليس هكذا حال الحدث الـذي بين الثانيـة عشرة والثـالثة عشـرة من عمره، فإنه في هذه السن لا عمل له في فطرة ما حـوله من المخلوقـات، لأنه ليس في استعداده إذ ذاك ما يكسوها بهاءً، ويزيدها رونقاً ورواءً، بل هو يتأثر بها كما هي، فمن الفوائد الكبرى له أن يولد أو يتربى بـالقُرب من بعض المنـاظر الكونية العظمى كمنظر نهر جميل أو بحيرة أو جبل أو غـابة. فإن لما تتأثـر به النفس وتحفظه الذاكرة في الصغر من اللصوق والتمكن ما لا يخفى على أحد.

* * *

منظر الريف عندنا منظر مهيب غير أنه واحد لا تغيُّر فيه، وليت هذه البلاد كانت أكثر أشجاراً مما هي الآن، فإن مَثَل اليافع الذي لا يرى إلا ناحية من نواحي الكون كالصخور أو البحر كمثل من لم يقرأ إلا كتاباً واحداً.

* * *

لا بد في تربية الإنسان خصوصاً في صغره من تنوع الفواعل لتتنوع آثار انفعاله بها، ذلك لأن كل فرد من أفراده يميل إلى بعض المناظر دون بعض، حتى يكون هذا البعض الذي يميل إليه كطبعه في الاختصاص به، ومعنى هذا أن ضروب الحُسن في الطبيعة تقابلها في نفوس الناس مناسبات ذاتية، وليس المنظر الذي يتخيره الانسان ويرتاح إليه يأتيه على الدوام؛ عفواً؛ بل لا بد من السعي وراء تحصيله، فمن الناس من ينشأ اتفاقاً في سهل من السهول ويكون ميله للمناظر الجبلية. ويوافق هذا قول أحد الكتاب، في وصف رجل لا أذكر الآن من هو: إنه عربي وُلد في ظل شجرة تفاح بنورمنديه[1].

* * *

بلغ ولدي السن التي تبدو فيها حاجة الناشئ إلى الاختلاط بما حوله، وهي سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر، والمربون يخدعون هذه الحاجة في معظم المراهقين بإيتائهم قصصاً في الأسفار، وهي ولا ريب أدعى الكتب إلى التفاتهم إليها واشتغالهم بها، غير أنه مما لا نزاع فيه أن وصف البلاد بالغاً ما بلغ من قوة البيان، وضبط التحرير، لا يرتقي في تأدية العلم بها إلى درجة المعاينة، بل هو أدنى منها كثيراً فلا يمكن أن يستغنى بها عنها، من هذا كانت حاجته للسفر تمثل أهم مطالبه.

* * *

السفر ركن من أركان التربية:

الذي يدهشني من المربين هو قعودهم حتى الآن عن البحث في الانتفاع بالأسفار في التربية وجعلها ركناً من أركانها، فإن قيل إنما يمنعهم من ذلك حاجتهم إلى الزمن، قلت إن السفر إلى أمريكا مثلاً لا يقتضي الآن من الزمن

(١) نورمنديه: إقلم من الأقاليم الفرنسية القديمة التي دخلها العرب الفاتحون.

أكثر مما يلزم لتعليم التلميذ شكل الكرة الأرضية تعليماً فيه شيء من الحق، على ما في السفر ومعاينة الأشياء من الفوائد الكثيرة التي لا يستفيدها المتعلم من أي درس من دروس تقويم البلدان كتابية كانت أو قولية.

وإن قيل إن ما يقتضيه السفر من النفقات هو الذي يخيف المربين منه ويصدهم عنه، قلت قد فهمت هذا الاعتراض إلا أنه يوجد من الطرق غير واحدة للسفر بدون كبير نفقة، وإنما أكبر العوائق في هذا السبيل هو حذر الآباء والأمهات وخوفهم على أولادهم، فإن فكرة غياب الغلام الغرّ عن نظر أمه، ووكله لأمواج البحار عند السفر في السفينة، ومخاوف الأسفار بالقطار أو الطائرة، وتخليته ونفسه، مما يهيج نفوس الأمهات وتثور له قلوبهن.

* * *

لا جرم أن اهتمامهن بأولادهن حقيق بالاحترام والاجلال، ولكن ينبغي أن يفهمنّ القائمون على التربية، أن ليس في الغياب شيء يقطع أواصر الرحم، وأن عُرى المحبة والوداد تجمع بين القلوب الشريفة والنفوس الكريمة، مهما اتسعت مسافة البُعد بينهما، وأنه لا خوف من الحرية إلا على الأبناء الذين لم يبكر بتعليمهم الاستقلال بالسير في هذه الحياة. على أنه لا يصح أن تكون محبة الوالدين لأولادهما الأعزاء مقصوداً بها لذتهما، بل لا بد أن تكون غايتها الحرص على مصلحتهما، فإن رحمتهما بهم تدب إليها شبهةُ الأثرة إذا انحصرت في إبقائهم في كنفهما وإن أخلَّ ذلك بتلك المصلحة.

* * *

وفوق هذا فإنه لم يكن من العبث أنْ استعملت في أيامنا هذه القطارات والطائرات في طي المسافات الشاسعة، وتقريب الأقطار المتنائية، وأبعدت الملاحة في فتوحاتها، ورخّصت للناس أسعارها، فأصبح السفر إلى البلاد المجاورة لنا من قبيل التنزه وتمضية وقت الفراغ في البحر، وقد شعر النوع الأنساني بنمو اجنحته للرقيّ فلا محيص من التسليم، وأنا أخشى أن لا تُغني حكمة الشيوخ الزاجرة عن السفر شيئاً مما يجده خَلفَنا في نفوسهم من الحمية والحاجة إلى رؤية العالم.

* * *

جميع الأمم الحرّة أمم رحَّالة لا يعوقها بُعد المسافات، ولا اختلاف الأقاليم ولا العقبات المادية، بل ولا تعلُّقها المتين الأعمى بالزاوية التي تعيش فيها من الأرض.

* * *

القوانين التي جرى عليها توزيع أجيال النوع الإنساني على البلدان، قد تحدَّد بعضها بالفطرة، وبعضها بالتاريخ، وكثير منها بسياسة الحكومات، ومازال الحاكمون في كل عصر يعنون أشد العناية بأن يعيش المحكومون ويموتوا في الأرض التي ينبسط عليها سلطانهم سواء في ذلك الأغنياء منهم والفقراء، وقد استنتجوا من كون هذا الأمر مفيداً لمصالح ملكهم، أنه من الفروض التي لهم على رعاياهم؛ ونجحوا في إقناعهم بذلك، وكان من أوهام المربين، وخيالات الشعراء، وأفكار رجال الدين، ما تضافر في قرون طويلة على أن يغرس في القلوب غريزة يشترك فيها الإنسان والعجماوات، وهي حبه للمكان الذي وُلِدَ فيه. نعم إنها من الغرائز الحسنة ولا تنسى أنها هي السبب في تأليف الجماعات، ولكن لا يغرب عن ذكرك أيضاً أنه يسهل إن يُساء استعمالها ليبقى المستضعفون من الناس عبيداً للأقوياء الغاشمين.

* * *

لما كانت جماعات الإنسان في بداية نشأته قد انحصرت كل واحدة منها في بقعة من بقاع الأرض كانوا معتادين من صغرهم، المعيشة في الأماكن التي يجدون فيها ما يقتاتون به، ووصلت بهم هذه الحالة إلى حد أنهم قد عدُّوا هذه العادات الانحصارية من الفضائل، وأما أنا فلا أعدّها إلا معيبة، ولا أقدرها بما لا تستحق، فما زال الفلاح اللاصق بأرضه يُقلِّبها ويزرعها، أدنى منزلةً في الجملة من المدني، والمدني نفسه يستفيد ويرتقي كثيراً إذا اتسع نطاق معاملاته مع العالم.

* * *

الأمم التي تكون عالة على أرضها أجنبية عن لغات غيرها، في وسعها ـ لا شك ـ أن تقوم بعظائم الأمور وجلائل الأعمال لكنها تكون أكثر من غيرها استهدافاً لقوارع البغي السياسي، فإنها لا تتأثر من تعطيل القوانين، ولا من

إبطال كفالات الحريات، ولا من دوس حقوق الأفراد واهتضامها. ذلك لأن أبناءها يلتصقون وهم كالمستميتين بقطعة الأرض التي تأويهم، وقد دنّسها الدم الذي سفكه عدوها الظافر، وجعل منه قرباناً لسيفه، فالاغتراب أشد رهبةً في صدورهم من جميع المصائب ولو أحاطت بهم فوادح الخطوب القومية من كل ناحية، فإذا نُفي بعض ذوي الوجاهة والنفوذ من الأحزاب المُستضعفة إمّا بحكم الضرورة، أو بما يُتخذ من طرق القهر في زمن الفتنة، كان النفي أبلغ المحن في نفوسهم ألماً، فتراهم حيارى لا يدرون أين يذهبون؟ ولا ماذا يصنعون؟، وقد صارت الدنيا في أعينهم؛ وهم خارجون من ديارهم؛ صحراء يعوزهم فيها الدليل، قفراً موحشاً لا يجدون فيه أنيساً.

* * *

وأما الأمة التي يعتاد أفرادها منذ نعومة أظفارهم، قطع أجواز البحار، ولا يكونون بمعزل عن لغات الأمم الأخرى وعوائدها، ويدرسون أبعد ضروب الحضارة عنهم وأشدهم اختلافاً، فإنه لا يكون لصروف الدهر عليها سبيل، ولا يخشى بنوها بطش القوانين الخاصة، ولا التغريب، بل يكونون أصدق من قول القائل: «ما كانت الشمس لتغرب عن حكومتنا».

* * *

ولقائل أن يقول: إن عادة السفر قد تضعف في الأحداث العاطفة الوطنية، فأجيبه أني لا أميل قطعاً إلى عموم معنى الوطنية واتساعه. فما أتعس من تكون الدنيا كلها وطناً له، إذ لا يكون الإنسان إنساناً إلا بشرط أن ينتسب إلى طائفة معيّنة من البيت الإنساني، وأن يكون له لغة وأُمَّة خاصتين به، غير أنه لا ينبغي أن يتوهم أن حب الوطن الحقيقي يضيع كثير من معناه إذا تجرّد من روابط الوثنية المادية التي كثيراً ما تشوهه، وتنجس قيمته، فليس الوطن مطلقاً عبارة عن السهل أو الجبل أو الغدير الذي يُولد الإنسان بجواره اتفاقاً، وليس هو من القرميد أو الحجر، ولا هو بالمكان الذي يحصره سطح يُقدّر بالفراسخ المربعة، كلا!

ليس الوطن شيئاً من ذلك، ولكنه معنى يقوم بالذهن، بل تاريخ أُمّة، بل آثار سلفها، وإن شئت فقل: إنه وجود كلّي تشعر جزئياته بالمعيشة فيه، ولا

شيء من ذلك كله يضيع في ركوب متن البحار، ولا في اجتياز المفاوز والقفار، إذا نُقِش على لوح القلب وتحققت به النفس.

* * *

الفصل الثاني عشر

التربية بركوب البحر



التربية بركوب البحر

في البحر: تقرر أن يقلع أصحاب السفينة التي تقلنا في يومين وها نحن أولاء ننام فيها منذ الآن: ذلك أني قرأت في الصحف المصرية منذ ستة أسابيع إعلاناً بأن سفينة تسمى «الأقصر» تسافر عما قليل إلى ليبيا، فلم ألبث عند وصولي إلى الإسكندرية أن سألت عنها، ولاقيت ربانها في أحواض الميناء، وهو رجل في نحو الثانية والأربعين من عمره، أسمر قصير بادن، تؤذن بدانته بأن تنتهي بسمن مفرط مع ما هو فيه من عيشة الجد والنشاط، ويطري الناس خبرته ومتانة سفينته، وأني قلّما صادفت وجهاً أطلق من وجهه، ولا أدلّ منه على الذكاء والاستقامة، وقد تبين لى أنه عرف في الأقصر ربّاناً جسوراً، انقطع للملاحة لا يعرف غيرها، كنت سافرت معه فيما سبق واتخذته صديقاً، فلما علم أني صديق صديقه أقبل عليّ بصدر رحب، وقلب سليم، وكان من نتيجة هذا التعارف أن اتفقنا على أن أكون طبيباً للسفينة كما كنت لهذا الصديق، وأن يكون ولدي تلميذاً بحرياً في مدة السفر.

* * *

لمّا سمعت والدته بهذا ارتاعت أول الأمر لِما توقعته له من سوء الطالع في ذلك العمل، فاجتهدت في تسكين روعها مبيناً لها مقاصدي منه.

* * *

بلغ ولدي الآن من السن أكثر من ثلاث عشرة سنة. وأصبح طويل القامة، قويّ الجسم، يتمتع بصحة تامة؛ من أسبابها فيما أرى؛ نظام المعيشة

الذي جرى عليه، وقد بدا لي أن اشتغاله بتعلّم الملاحة فرصة مفيدة لتربية قوته البدنية، وشد أعضائه، وتذليل عضلاته بأعمال تقتضي من المهارة مثل ما تقتضيه من الشجاعة الحقيقية، فإني ووالدته ما قصدنا قطعاً أن نجعله واحداً من أجنّة العلم الفاسد الذين لا حياة لهم إلا في رؤوسهم، فليعجب من شاء بأولئك المراهقين السِقام المخدجين[1] الذين أعجزهم الدرس عن العمل، فليس هذا هو الكمال الذي ننشده لابننا.

* * *

رأيت الناس في مكان لا يحضرني اسمه الآن يجرحون باطن الصدفة في بعض الحيوانات الرخوة بطرف خنجر ليحملوا هذه الحيوانات على توليد اللؤلؤ بالصناعة، فذلك يشبه أن يكون شأن المربين مع أحسن التلاميذ، فهم يتلفون بناهم، وينهكون أجسامهم، ولا أدري أي قصد لهم في ذلك سوى الحصول على مجموع من المعاني تحجر في أذهانهم تواضعوا على أن يسموها علماً!! غير أني في شك من أن ما يحصله المتعلمون من تلك المعاني يعوّضهم شيئاً مما خسروه في سبيل تحصيله من قواهم وما أتلفوه من صحتهم.

* * *

ولست أقصد بقولي هذا تثبيط المتعلمين عن العلم فإن الأنسان خُلِق ليعلم، وإنما أريد أن يفهموا أن العمل البدني والعمل العقلي متكافئان في لزومهما لتقوية العقل وإحصافه، فعلينا أن نربي كل ما وهبه الله لنا ولا نستخف بشيء منه.

* * *

استشرت ولدي قبل اعتزامي على هذا الفكر فألقيته مملوء النفس به، لأنه كجميع أترابه يحب الجديد ويأنس من نفسه فخراً بتعلّمه حرفة، ويجب في هذا المقام أن أبين مرادي، وهو أني لا أعتقد بحال أنَّ من حقي أن أختار لولدي عملاً تقوم به معيشته، كما أني لا أدَّعي لنفسي حق إلزامه الإيمان بعقيدة سياسية! على أنه لم يأت وقت التفكير في الحُرفة التي ينبغي أن يشتغل بها،

(١) الطفل الخديج: هو الذي يولد ناقصاً (٧ شهور) في تمام فترة الحمل.

ولا أدري هل يعرف بنفسه ما يلائمه من الحِرف أم لا! فإن تربيته في غاية البُعْد عن نهايتها بل هي بدايتها، ولكني أرى أنه مهما حذق المربي في التبكير بإنشاء الطفل على الميل إلى النفع والطمع فيه لم يكن ذلك منه عجلة مذمومة، ولقد عرف ولدي مما تلقاه من الدروس: شرف العمل وكرامته، فتراه يتخيل الآن أن سيكسب أجرة سفره بتسلقه شُرع السفينة وهو تخيل غير صحيح إلا في جزئه، غير أني تحاميت كل التحامي في إزالة هذا الوهم من نفسه، وتركت له أن يفخر بأنه يطعم خبزه الجاف بكده ونصبه، فإن أقلَّ ما في هذا أنه مفخرة، كنت أكون جديراً باللوم لو أني حرمته منها.

* * *

ماذا يتعلم اليافع في السفينة؟

ثم إن التعليم في سفينة تجارية مفيد ومقوّ للعقل، خصوصاً إذا كانت مدته لا تتعدى بضعة شهور، فحرية الإنسان على ظهر البحار هي أن لا يخضع إلا إلى الواجب، فطاعة البحّار في الحقيقة فيها شيء من الاختيار وهذه هي الخاصية التي تفرق بينه وبين الجندي، فالرجل الذي يرى من نفسه الجهل ببعض نواميس الكون فيبدي من قوتها ما يكفي لامتثال أمر الربان وهو يُعلمه بقول موجز ما جهله من تلك النواميس، يكون قد جمع في عمله هذا بين الاستقلال والحكمة.

* * *

من مزايا السفينة أيضاً أنها تؤدي إلى كل من ترتاح نفسه للعمل من ركابها عملاً يشغله: فهذا يشتغل بالطهي الذي سبق له شرف إجادته في أسفار سالفة، وهذه سكرتيرة، والبعض يقوم بمساعدتي في التمريض، ويقوم البعض الآخر بالعزف على البيانو. . والناي. . تسرية للسآمة عن المسافرين، وتقوية لقلوبهم وقلوب الملاحين أنفسهم الذين يجتمعون كل ليلة على السطح لاستماعهم.

* * *

لست أبالغ لنفسي البتة فيما لهذا التعلُّم من الآثار الحسنة والنتائج المفيدة، فأنا أعلم أن ولدي لن يكون بحاراً لمجرد ما يمارسه من التمرن في

مساعدة الملاحين عند رسوِّ السفينة في الميناء، بيد أن بلاءه في ذلك لا يمكن أن يتخلف عنه استفادته منه، فإنه بواسطته يتعلم شيئاً من أحوال البحر، وبه يعرف أجزاء السفينة الأساسية وما يُطلق عليها من الأسماء، فكثير من أترابه لا يعرفون شيئاً من أمر هذه الدنيا السابحة.

* * *

أخص ما أعني به في هذا الأمر أن يحصل في ذهنه بالاختبار والمشاهدة معنى من القوى الكونية العظمى وما يلزم للإنسان في مقاومتها أو قهرها من ثبات الجأش وحضور الفكر، وسيكون أعظم درس له في سفره، ومما لا يسعني إلا أن أضحك منه أنني أسمع بعض المُعلمين يقولون لغلمانهم المتبطلين الذين ورموا من صغرهم كِبْراً وغروراً أنهم ملوك الخلق، فهلا وصفوهم إيضاً بإن أيديهم البيضاء الرقيقة لم تُخلق إلا لتقود عجلة الشمس في أرجاء السماء؟ رويداً أيها المعلمون، قِفوا بهؤلاء الملوك أمام البحر فانظروا ما يعتريهم من الرعب خشية أن تبصق أمواجه الكثيفة في وجوههم.

* * *

وأما ولدي فإنه لا بد أن يتعلم من الآن ما يجب أن يبذله الإنسان في سبيل سيادته على الفواعل الكونية، وكيف ينبغي أن يكون معها في كفاح مستمر ليحفظ سلطانه على عرش الماء.

حادثت الربان وهو رجل شهم في شأن ولدي وكاشفته بفكري في تربيته، ففهم حق الفهم الدرس الذي أردت تعليمه إيّاه وهو أن من المفروض على الشبان «أن يعتبروا العمل العقلي جزاءً للعمل البدني ومكافأة عليه».

* * *

ماذا استفاد الإنسان من ركوب البحر؟

قلّما رأيت ارتفاع الموج مرةً، لم يكن مرآه فيها مثاراً للعجب في نفسي، ولكن أخص ما شغل ذهني منه الآن هو جملة العلوم التي استفادها الإنسان من ممارسة البحر، انظر إلى النظام الكوني، تجد أن العلم الذي يبحث فيه عنه إنما تولّد من الملاحة، فإنه لولا أن حاجة الإنسان إلى الاهتداء

في سيره على ظهر البحار دفعته إلى درس الفلك، لكان من المحتمل أن لا يخطر بباله أصلاً أن يتقصى سراً من أسراره، فاحتياجه إلى السعي في طلب الغنى هو الذي اضطره إلى قياس الزمان والأبعاد قياساً مضبوطاً، فترى الملاح الساذج مع أنه لا يعرف القراءة حائزاً بالتحقيق لكثير من العلوم العملية، سله إن شئت، وليكن ذلك عن بعض الأمور الطبيعية تجد كلامه فيها يرجع إلى ما قرره العالِم الذي قضى سنين طويلة في دار من دور الكتب. وإذا كنا الآن قد أنشأنا للرياح والزوابع قانوناً فإنما ذلك كان بسبب ما جُمع من ملاحظات البحّارة المختلفين في السفن الموزعة على جميع البحار، فأصبح أشد الفواعل الكونية استعصاءً على الضبط منقاداً إلى قانون. ودخل أبعد الحوادث عن النظام في نظام العلم العام، وكشفت المسابير أغوار قعر المحيط، وقفاره المفروشة بأسلاب فرائسه، وأضحى الآن من الميسور رسم خريطة لتيارات البحر السفلية، ثم إن الفضل فيما عرفناه من العلوم الصحيحة عن شكل العالم راجع إلى الملاحين.

* * *

خُلِقَ البحر مثالاً للأزل لأنه مثال للحركة فشهد تولد اليابسات المتعاقبة وانعدامها وارتفاع الجبال وما وقع على مرّ الدهور من ضروب فعل الأرض وانفعالها مما لا يزال يرتجف منه فؤاده، وهو اليوم كما كان في مبدأ العالم لا يعتوره نصب في جهاده وجلاده، فتراه يعضّ بعض سواحله ويقرض ما يقاومه من الصخور الصوّانية، ويقتلع بعض أجزاء الأرض من أماكن مختلفة فينقلها من أحد نصفيها إلى النصف الآخر ليبني بها سواحل جديدة، وجزراً ورؤوساً لا بد أن يهدمها بعد، وما بدأ به من العمل يتحول من مكان إلى مكان، على تعاقب العصور، بالقوة الساكنة التي توجد فيما لا يموت من الأشياء، وكما أن البحر رحم للخلائق العضوية الأولى، هو أيضاً أكبر مستودع للحياة.

* * *

من المحقق الذي لا مرية فيه أن ممارسة البحر قد وسَّعت دائرة علومنا، ولكنا قد استفدنا منه ما هو أجلّ من العلم نفسه، ألا وهو ما يتحلى به الرجال من الفضائل التي ينمّيها في النفس الجهاد مع البحر المخيف، فلولا هذا الجهاد لما عرف الإنسان شيئاً يستحق المعرفة، فما أمثل الملاحة طريقةً

للتربية! فذلك المربي القاسي العبوس وأعني به البحر، يبثّ كل يوم في أذهان غلمانه الذين يتغذون بلبان معارفه أن النفوس متساوية، وأن الفلاح إنما هو في الاعتماد عليها، ويعلّمهم من البسالة مالا تزعزعه الخطوب، ومن الصبر ما يقومون به على احتمال كل ضروب الحرمان واقتحام جميع المخاطر، ومن ذا الذي في وسعه أن يصف ما آتى الجنان من الثبات، وما ألبس النفس من درع القوة، وهووإن غلبه الملاّحون بمثابرتهم على قهره، وثباتهم في طلب الظفر به، يحق له في نفس هذا الغلب أن يفخر بغالبيه فإنه هو الذي أنشأهم وهم تلاميذه.

* * *

وصف المشاهد الطبيعية في البحر

قررنا جميعاً نحن ركاب السفينة «الأقصر» أن نذهب إلى أمريكا الجنوبية وبالتحديد، بيرو، فقد فعلها كولمبس من قبل فهل نكون أقل منه؟! مكثنا أياماً قليلة في طرابلس ـ ليبيا، وتزودنا بمايكفينا استعداداً لمواصلة الرحلة. ها نحن الآن في عرض البحر، نحن الآن مارّون أمام الجزائر الخالدات وإن كنا لم نرها وهي مرتسمة على سطح الماء المتسع ـ إلا كرؤيا الحالم، وقد اضطرتنا الرياح المتناوحة إلى التوغل في البحر.

* * *

كان غروب الشمس بالأمس من أجلِّ المناظر وأبهاها، وكان الليل مهيباً والقبة السماوية المظلمة تزهو بلآلىء النجوم التي هي كالرمل عداً، وما لي ذكر أسمائها، فلا فائدة في ذلك، ويكفيني أن أسميها بالنور . . وممّا ميزناه منها الزهرة ـ لعنها الله ـ والتي مع كفها عن دعوى الألوهية واقتناعها بإن تكون في مصف الكواكب، لم يضل عنها ميلها إلى التغنّج النسوي، فلا تزال تحب أن ترى نفسها في مرآة البحر.

* * *

في نحو الساعة الرابعة أو الخامسة من الغداة انشق النطاق الأسود الذي كان مشدوداً حول الأفق يلأم السماء بالماء رويداً رويداً، ثم بدا من بين حافتيه

ضوء مخضر يحاكي ماء البحر في لونه فانتشر على الأمواج وهو ضوء الفجر، وساعة طلوع الفجر في العروض التي نحن فيها الآن من الساعات المشهودة على قصرها وقصر مدة الشفق أيضاً، فإنه يخيل للرائي فيها أن العالم بأسره مضاء بالكهرباء وربما كان قصر مدة الشفقين سبباً في ذلك.

* * *

مما حملناه معنا في السفينة ديك صغير وضعناه مع دواجن أخرى في أحد أقفاصها، أسمعنا صياح التنبيه والإيقاظ ثلاث مرات فكان لصوته الشبيه بصوت البوق تأثير محزن قابض على نفوسنا بسبب أحوال الغربة التي نحن فيها، وكان يسري إلى القلوب بلا عائق، لأنه كان يذكّر المسافرين بمصر وأرضها وريفها الجميل، ومعيشة المزارع وما يعالجه المزارعون من الأعمال الشاقه.

* * *

ثم تتابع انمحاء الكواكب من السماء فأخذت تنطوي في أعاليها وتصطبغ باللون الأزدرختي.

ثم أشرقت الشمس فإذا الأمواج نفسها وقد ملكها الاجلال، وتولاها الاعظام، يُخيل للناظر أنها خشعت لهذا الينبوع الذي هو مصدر الضياء والحياة وصارت السماء كلها جذوة نار، وترقرقت سبحات من النور الذهبي على صدر المحيط الذي نهدت منه الأرض بالتدريج تتلألأ بهاءً ونضرة.

* * *

لم يقع بصري على ولدي وزوجتي معاً إلا في هذه الساعة وحدها من النهار، رأيتهما جاثيين كأنهما في عبادة واستغراق في المشاهدة، فليت شعري! هل اقترب كلاهما في تلك الساعة من إدراك معنى الألوهية بمراقبة جمال الكون وبهائه.. وكأني بهما يرددان: سبحان الله... سبحان الله الخالق المبدع... ما أجمل الكون!... ما أجمل بهاءه!...

* * *

وصف الأسماك الطيَّارة وكلاب البحر

كيف يصطادها البحارة؟

نحن الآن سائرون تحت خط السرطان. ويرى على زوجتي أنها لغرارتها تقلِّب وجهها في السماء تفتيشاً عن ذلك الحيوان البشع الشبيه بالسرطان البحري في شكل أرجله، كما هو مرسوم في التقاويم التي جعل فيها من علامات منطقة فلك البروج. وهي بذلك تستهدف السخرية من ولدي وزرايته.

* * *

تجري بنا السفينة بأقصى سرعة لها تزجيها رياح شديدة. . ذلك أنّا أردنا اغتنام هذه الرياح الانقلابية التي يسميها الانجليز رياح الشمال الشرقي التجارية. يتدرج النهار في النقص ويكاد الآن يساوي الليل. تتقذف من باطن المياه أسراب كالغيوم من السمك الطيَّار، وتسفّ سفيف الخطاف، فبينما كان أحد الملاحين البسلاء يدخن غليونه البارحة، إذ لطمه جناح بارد مندى على خده فتولاه من ذلك دهش عظيم، ثم التفت حوله فإذا هو بسمكة من هذا الصنف تحت قدميه، على ظهر السفينة، ويندر أن تصل أمثالها في انقذافها إلى هذا الارتفاع، وإنما جذبها إليه ضوء مدخنة الغليون.

* * *

كيف يصطاد البحارة. . كلاب البحر والدرفيل؟

أخوف سكان البحر الأخرى التي لم يرها ولدي حتى الآن وأهيبها بلا نزاع هي كلاب البحر، وللملاحين في صيدها نوع من الحماسة والنخوة، وقد اصطادوا غداة اليوم واحداً من هذه العفاريت ـ كما يقولون ـ لأنهم أطلقوا عليها أبشع الأسماء كلها، وذلك بواسطة هُبْرةٍ من اللحم زنتها نحو اثنين ونصف كيلو جرام ألقوها إليه، وكان منظر صيدها مؤثراً فاسترعى أبصار جميع المسافرين وبعثهم على الصعود إلى ظهر السفينة لمشاهدته، وكان أول عمل لهم بعد صيده أن بتروا ذنبه بفأس، وهو احتياط أراه ضرورياً علىٍ ما فيه من القسوة، لأنه شوهد غير مرة ـ أن إغفاله كان سبباً في أن يكسر بذلك الطرف المرن ساق بعض القريبين منه اثناء معالجته التفلُّت من أيدي صائديه. ويأكل الملاحون

أحياناً صغار كلاب البحر، غير أنهم يقرّون بألسنتهم أن لحمها غير جيّد، وهم إذا قتلوا هذه الحيوانات فإنما يبعثهم على قتلها مجرد بغضهم لها.

* * *

ولشد ما يؤذونها بسبب هذا البُغْض، وحجتهم فيه أن ما يصطادونه ويقتلونه منها التقم فلاناً أو فلاناً من أصحابهم، فإن لم يكن هو الذي التقمه كان أخوه أو أحد أقاربه، ولقد حاولت صدّهم عن ممارسة هذه الآلاعيب الوحشية مبيناً لهم إن الإنسان لا ينبغي له أن يُعذّب عدوه بعد غلبه، فذهب نصحي أدراج الرياح. ولكني آمل أن لا تفوت ولدي هذه العِبرة.

* * *

تبقى لكلاب البحر بعد موتها في السفينة رائحة خبيثة لا تزول إلا بعد بضعة أيام، وهكذا الأشرار يؤذون حتى بعد موتهم، من يسعون لخلاص الناس من شرهم.

قلّما يفهم الناشئون من القوانين شيئاً إلا قانون القصاص: ذلك أن الملاحين اصطادوا درفيلاً عشية اليوم الذي اصطادوا فيه كلب البحر، فما كان من زوجتي إلا أن قالت وهي تنظر إليه نظراً يشف عن الرحمة، لقد استحق هذا فإني رأيته التهم كثيراً من الأسماك الطيّارة الجميلة.

* * *

لقد صدقت فإن ما التهمه منها لم يكن إلا لقمة واحدة من لقمه، وأن سنَّة الله في خلقه أن من أكل أُكِل، وقد أثبتها الملاحون لها بجعله عشاء لهم، ولحم هذا الحيوان إذا غلي في الماء كان فيه شيء من الجودة إلا أنه يكون ناشفاً.

* * *

من عجائب البحر

في نحو الدرجة السادسة عشرة والدقيقة الثلاثين من العرض الشمالي، أنشأنا نرى في السماء برجاً جديداً، يسميه الملاحون صليب الجنوب وهو مؤلف من خمسة نجوم. وعجيبة أخرى أبصرناها في ذلك المكان وهي أن المياه تضيء ليلاً، وقد راع منظرها ولدي وزوجتي فلم يستطيعا أن يفيقا من التلذذ بجماله،

وإن كان قد بعث فيهما شيئاً من الخوف، فإن كليهما سألني: من ذا الذي أوقد النار في البحر؟ ففسرت لهما بما في وسعي ما أعلمه من أسباب هذه الحادثة، التي لم تعلم تمام العلم، وقد علّل العلماء وجود هذا الضوء في الماء بوجود حيوانات مضيئة تشبه النباتات فيه.

* * *

كان ذلك النور من شدة سطوعه بحيث أن ولدي، تناول كتاباً من جيبه، وقرأ فيه على انعكاسه عن الأمواج الملتهبة هذا البيت من الشعر. وهو معرب عن قصيدة لشكسبير:

خير جزء فيَّ روحي   وهي بالتحقيق روحك

نعم إنَّ الله سبحانه وتعالى ـ لم يفض علينا جميع روحه[1] وما أقل ما أُفيض علينا منه غير أن هذا القليل الذي يهبه لنا يتصل بروحنا اتصالاً حقيقياً فيهبنا حياة الخير والفضيلة والحق والجمال.

والذي يدهشني من حادثة ظهور الضوء في البحار أنها تقع عادةً في أحلك الليالي.

* *

فخامة منظري الشروق والغروب في بعض الجهات

أعوزتنا رياح الشمال الانقلابية التي كانت مواتية لنا أحسن المواتاة على جرينا في فضاء المحيط، وعوضنا عنها الآن، رياحاً خفيفة متناوحة تهب على التعاقب من جهات مختلفة للأفق، وانتقبت السماء في مواضع متفرقات منها بسحب بيضاء، وسفرت في مواضع أخرى بزرقة شاحبة جميلة. وللشمس في هذا المكان شروق يخطف الأبصار ضياؤه فلا تقوى على احتماله، وأما غروبها ففخم جليل.

* * *

---

(١) قال تعالى: ﴿يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾

وصف التغيّيرات الجوية والأعاصير المائية

حالة الجو في اختلاف وتغيّر فمن رياح شديدة إلى سكون عام، ومن مطر هتّان، إلى شمس محرقة ترمي رؤوسنا بسهام أشعتها العمودية.

لفتنا الربان إلى إعصار من الأعاصير المائية التي يخشاها الملاحون بحق، فرأيناه من مسافة بعيدة، وأكثر ما تثور هذه الأعاصير في جهة خط الاستواء.

تبادل الملاحين صنائع المعروف في السفن

صادفتنا سفينة قافلة من الهند أو من الصين إلى مصر الحبيبة، وآذنتنا بإشاراتها أنها مستعدة لحمل ما نحملّها من الكتب، ولما كان تبادل صنائع المعروف مما تُحفظ به المودة في البحر، أرسلنا لها بعض الصحف المصرية التي تظهر تباعاً في شتى بقاع العالم (جريدة الأهرام الدولية)، وكتبت وكتب ولدي كلمتين لأحد أصدقائي من الأطباء.

* * *

شجاعة الملاحين.. تكْتسب بالتعلُّم

انتهينا من الطواف برأس الرجاء الصالح، ولكن ما أعظم ما بذلنا في سبيل ذلك من الجهد، وما أشد ما عانينا من المشاق... وما كان أشدني إعجاباً في نفسي بالبحارة في تلك الساعات التي قضيناها في مكافحة البحر ومغالبة الخطر، فليست بسالة الملاح من قبيل بسالة الجندي ولكنها تفضلها في رأيي، لأن الملاح بما له من الجرأة على الموجودات والفواعل الكونية، يكافح الموت مواجهة فلا يحول بينهما إلا سُمك لوح من الخشب، وليس غرضه من الكفاح إبادة نظرائه، بل هو في مدافعته عن حياته يعمل لتنجيتهم من الهلاك، وناهيك بالبحر عدواً، أوتي من العدو، ما هو أشدها رهبةً في العالم بأسره، فإنك ترى السفينة ـ تطاردها الريح والبرد والبرق وجبال من الموج فهي في الحقيقة تقاوم قوى كون من الأكوان برمتها.

* * *

ولا مشابهة أيضاً بين قدر الملاح وبين ما يفاخر به السفسطي من اجترائه على معاندة القدر باستدلالاته الدقيقة اجتراء بارداً خالياً من العمل، هيهات! فإن قدر الملاح ما يتجلى في عمله من قوة نفسه وهمتها، فتراه مع استعانته بربه، لاستمساكه بدينه، لا يعتمد بعد ذلك إلا على نفسه، أعني على صحة بصره، وضبط حركاته، وقوة أعصابه، فإن قهره عدوه، سلّم إليه ولكن هذا لا يكون إلاّ بعد أن يرى آخر سلاح له قد تحطم.

* * *

تلك البسالة تُكتسب بالتعلُّم، وهذه الثقة بالنفس تسري بالمعاشرة، يدلك على ذلك أن ولدي كان في أول عهده بالملاحة شديد الروع، فما لبث أن ذهب عنه روعه، بالتأسي برفقائه، لأنه كان يرى من العار أن يرتجف فؤاده وتتزلزل قدماه أمام هؤلاء الأبطال وهم ثابتون في مواطنهم. فلا شيء يعمل كالعمل البدني في تقوية القلب، فبطالة المسافرين هي التي عند أدنى هيعة[1] تملأ قلوبهم بالمخاوف، وأدمغتهم بالخيالات، وأما الملاح فليس للخوف متسع في وقته.

فمن مزايا الملاحة أيضاً أن ما فيها من مكافحة الخطر يُنمي في قلوب الملاحين حب الحياة، فمن ذا الذي كان يحسب أنّ الانتحار لا يكاد يكون معروفاً بينهم.

الضجر من الحياة من مميزات العصور الحديثة، وهو أخوفها عندي على الشبان، وأشدها إيلاماً لنفسي، فإني أرى الأطفال يولدون غير مبالين بشيء، سائمين من كل شيء، خامدي الإحساس ميتي القلوب، فكم من فتاة: إذا انكشف لها وهمها الأول مرة فيما كانت تعتقده واقعاً تمنت لو أنها ماتت قبل انكشافه! وكم من فتى كسول! لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، ولم يعامله الجد إلا معاملة الغلام العارم يصيح قائلاً: ما فائدة الحياة؟.

---

(١) الهيعة: صوت الفزع.

وليس من غرضي هنا أن أبحث عن أسباب هذه المصيبة الملمّة بالنفوس والأخلاق، وإنما غرضي أن أقول لكل هؤلاء المتبرمين: «انظروا إلى الملاحِ تجدوا أنه هو الذي عرف قيمة الحياة لأنه في كل يوم يذود عنها أخطاراً حقيقية، لغاية نافعة، وبذلك صار أهلاً لأنه يقدرها حق قدرها.

من أجل هذه الأسباب كلها أرى أن ولدي الآن في ولاية معلمين حاذقين، وأما زوجتي فإنها والحق يقال: لم تبد من البسالة شيئاً يُذكر، لأنها لبثت مختبئة في إحدى زوايا حجرتها، فكانت كالنعامة، التي يؤكد العارفون بأخلاقها، أنها تتوهم أن دفن رأسها في الرمال، منجاة لها من الخطر الملم بها، مما اضطر ابنة أحد الملاحين إلى أن تكون قدوةً لها في الإقدام تسكيناً لروعها، وكان هذا موجباً للإعجاب بها بحق.

شجاعة النساء المحمودة

من الخطأ أن يتوهم متوهم أن لا فائدة في الشجاعة للنساء، فإنه إن كان يريد بها الشجاعة الحربية، فإني قليل الاعتداد بها في الرجال، فأكون أقل اعتداداً بها في المرأة المترجلة، ولكن لا يغرب عن الذهن أنه يوجد من ضروب الأقدار غير واحد، فإن النساء مستهدفات للمخاطر التي نحن عرضةً لها، ومضطرات لمغالبة ما نغالبه من حوادث الكون الخارجي، وقد يوجد من الأحوال ما تتوقف حياتهن فيها، بل وحياة أطفالهن على سكينتهن ورباطة جأشهن، فقوة العزيمة وثبات الجنان، هما من الأخلاق التي تحتاج إليها المرأة كما يحتاج إليها الرجل.

* * *

من المصائب أن تسوء تربية الفتيات إلى حد أن يتوهَّمن أن تكلّف ضروب الفزع القاتل عند كل مناسبة خصوصاً بحضرة الشبان مما يلفت الأنظار إليهن، فيقول من يراهن في هذه الحالة أنهن يقصدن أن يظهرن في شكل الحمائم المروّعة، ويجمل أن يوعظن بإن الخوف لا حُسن فيه مطلقاً، وأنه يجب عليهن لأنفسهن إذا أحدق بهن الخطر أن يجتهدن في استشعار الاطمئنان والسكينة إن كن يُردن أن يصرن مثاراً للإعجاب والاستحسان، ولا صحة لما

يعتقدنه على ما يظهرن أن ثبات جنان المرأة يسيء خُلقُها، بل أجد جمالاً وشرفاً فائقين في تلك الذات، وإذا كانت مع تجردها من القدرة على المهاجمة، بل ومن قوة المدافعة، تقتحم الخطر بقوة جأش تكافأ قوة الرجل.

* * *

أنا أعلم أن من الأوهام السخيفة اعتقاد أن جفاء الطبع من لوازم الشجاعة، ولكن أود لو أدري متى شوهد أن الشجاعة الحقيقية غيرت من رقة المرأة ورحمتها، وغير ذلك من فضائلها؟ حاشاها من هذا، وإن الجُبن والأثرة لهما الذان يوجبان قسوة القلب وغلظه.

* * *

سل أُمّاً جباناً أن تشهد عملاً جراحياً يعمل في جسم ولدها، لتسليّه وتسرّي من ألمه، تجبك بأنها شديدة الاحساس كثيرة التأثر، وبئس العذر عذرها، فما مرادها إلا الاحتماء من كلفة التسخير. ثم لا يتخيلنَّ أحد أن قوة العزيمة والسلطان على النفس، أو الشجاعة الحقيقية هي من الأخلاق التي لا يُنتفع بها إلا من طائفتين من الأعمال هما الحرب والملاحة، فإني أرى أن منفعتها تتعدى إلى كثير من الأمور الأخرى، لأن الرجل والمرأة مهددان كل يوم في القوم الذين يعيشان بينهم، بآلاف من الأعداء والمعاطب. ولأن البحر لا يقصد إلا إزهاق أرواحنا، وما أكثر ما يعرض لنا من الأحوال الخطرة، التي يقصد فيها نقص أعراضنا والذهاب بحرماتنا.

* * *

وصول السفينة إلي بيرو بأمريكا الجنوبية مع بيان فوائد العقبان التي تُكثر في هذه البلاد

يا بشري! هذه أرض! هذه أرض! كانت أول بلاد ترسو عندها سفينتنا الأقصر ـ بعد هذه الرحلة الطويلة من الشرق.. هي بيرو بأمريكا الجنوبية، وكانت أول أرض تطأها أقدامنا هي عاصمتها ليما.

أخص ما أدهش ولدي وزوجتي عند هبوطهما على البر كثرة العقبان التي تسكن سواحل هذه الجهة، فإنها تُرى عند كل خطوة من الشوارع وعلى سطوح

المساكن، وقد رأينا منها طائفة تبلغ الستين أو الثمانين نائمة وهي جاثمة على جدار، ورؤوسها مختبئه تحت أجنحتها. ذلك أنها ليس من خُلقها الجفلان، ولا تخشى من السكان شيئاً لأنهم يجلونها، هذه الطيور في غاية الشره، وشرهها نفسه نعمة من نعم الله على أهل تلك البلاد لأنه يساعد على حفظ الصحة في المدن، وكان لولدي فيما رأى أخطاء غريبة في شأنها، فإنه لما سمع الزراية عليها، ممن درسوا أخلاقها في الكتب، كان يتخيلها سلّابة تسكن الهواء، أكالة دنيئة للرحم، فلم يمض إلا ساعات، قلائل، حتى زال الوهم وتبين له خلاف ما كان يتوهمه، فعلم أنها محتسبة سخّرها الخالق سبحانه وتعالى، في البلاد الحارة للقيام على تنظيف الطرق العامة، فهي تنقيها ممَّا يُلقى على الأبواب من القمامة واللحوم الفاسدة، ومما يُطرح فيها من الجيف، ويدل ما تبديه هذه الطيور من الاطمئنان إلى الإنسان والثقة به، حق الدلالة على شعورها بنفعها له.

* * *

الفصل الثالث عشر

التربية بالمشاهدة



التربية بالمشاهدة

نحن الآن في ليما عاصمة بيروبأمريكا الجنوبية، وهذه المدينة في نظري كثيرة الشبه جداً بإحدى مدن أوربا. في تلك المدينة شوارع لها من الرونق ما يناسبها، وفيها ميدان أنيق في وسطه برْكة فخمة من البرونزينبثق منها الماء في ثلاثة أحواض، على أن هناك جدولاً يخترق المدينة أفضله كثيراً على ذلك العمل الفني، وهذا الجدول يأخذ مياهه من مثالج الجبال (القوروبير)، وبعد أن يجري ثلاثين ميلاً يصل إلى ليما فيقسمها إلى قسمين متساويين تقريباً، ولست أدري أضلال أم حق أن أحس ببرودة مياهه إذا غمست أصبعي فيها كأن ماء الثلوج لم يمهله إندفاعه أن يسخن بحرارة الشمس.

* * *

ليست الحرارة في تلك الجهة من الشدة بالمقدار الذي قد يتوهم مع كونها لا تبعد عن خط الاستواء إلا عشر درجات. وتعلل هذه الحالة بعلل مختلفة غير أن أخصها وضع المدينة، فإن المحيط الهادي يكنفها من أحد جانبيها ويكنفها من الجانب الآخر الجبال القائمة شرقيها مكللة بالثلوج الدائمة، وفي ذلك ما يساعد بلا ريب على ترطيب الجو، وبينها وبين البحر، فكأن البحر والجبال منطقة مزدوجة تمنطق بها الساحل لتقيه شدة الحرارة.

* * *

الذي يدهش ولدي وزوجتي كثيراً هو أننا بحسب منزلة الشمس الآن في فصل الشتاء مع أننا في شهر يونيه على أن الحق، أن لا شتاء في بلاد البيرو.

فإن السنة فيها تنقسم إلى فصلين، فصل الرطوبة وفصل الجفاف، ففصل الرطوبة يبتدئ من شهر إبريل ويستمر إلى اكتوبر وفيه يغشى المدينة ضباب ثقيل فاتر يسميه أهل البلاد بالغروى، وقد يبلغ أحياناً من الكثافة والاسفاف الدنوّ من الأرض، خصوصاً في الغداة؛ حداً لا نكاد نرى فيه ما هو شديد القرب منا من الأشياء، ويقال إن هذا الحجاب يتمزق في شهر أكتوبر أو نوفمبر، فترتفع قبة السماء، سنجابية اللون، ولا يلبث الظل أن يتلاشى بحرارة أشعة الشمس النفاذة وحينئذ يبتدئ فصل الجفاف أي الصيف.

* * *

لا ينبغي أن يُفهم من قولنا فصل الرطوبة، الفصل الممطر، فإنه قد يمضي قرن ولا تسقط على طول هذا الساحل كله قطرة من مطر. عرفت ذلك لأني منذ بضعة أيام كنت أسأل شيخاً من هذه البلاد: هل تذكر أنك شهدت مطراً في حياتك؟ فكان جوابه لي: «قط» فسألته عن عمره؟ فقال: إنه ثمانون سنة.

* * *

الضباب ندى، يحيل التراب إلى وحل، ويكفي لإخصاب الأرض هنا إخصاباً متوسطاً، على أنه يوجد في أماكن أخرى من بلاد البيرو وديان ورُبى قريبة من الجبال ينزل فيها من السماء سيول حقيقية إذا أصابت الرمال القحلة أصبحت عما قليل حافلة بالنبات، فالأرض لا تسأل السماء إلا أن تتصدق عليها بالماء.

* * *

فصل الجفاف بالضرورة أشد الفصلين حرارة، على أن الناس هنا يؤكدون لي أنهم يجدونه مبرداً بما يهب من نسيمي البر والبحر، فكأن هذين النسيمين يقتسمان اليوم بينهما. فيهب نسيم البحر في الجملة حوالى الساعة العاشرة من الغداة ويستمر على هبوبه متراوحاً بين الشدة واللين إلى غروب الشمس، ثم يركن ويستتب السكون، فإذا كانت الساعة الثامنة أو التاسعة من العشي جاء دور نسيم البر الذي يهب من الجبال فيبقى على هبوبه إلى الغداة.

* * *

في رأيي أن سكان ليما أشد ما فيها غرابة وادعاه إلى المراقبة، فلا أظن أنه يوجد في سكان بقعة أخرى من بقاع الأرض ما يوجد في ملامح وجوههم من الاختلاف العظيم، وفي ألوان جلودهم من الفروق الدقيقة الواضحة. ذلك بأنهم أخلاط من سلالة المستعمرين وأعني بهم الأشخاص الموجودين في أمريكا ممن هاجروا إليها من الدنيا القديمة خصوصاً أعقاب البيوت الأسبانية العتيقة، ومن الهنود والزنوج والخلاسيين[1] وغيرهم من الأصناف، فترى من ألوان وجوههم كلما نظرت إليهم: الأبيض الشاحب، والأصفر النحاسي، والأسود الكهربي، وما يتخللها من ضروب الاختلاف الصغيرة المتولدة من اشتباك الارحام واختلاط الأنساب، وإني إذا اعتبرت في الحكم عليهم ما قام بنفسي من آثار الانفعال برؤيتهم لأول مرة، حكمت بإنهم متشابكون بالأرواح كما تشابكوا بالأشباح.

* * *

تمتاز النساء البيض والخلاسيات عن غيرهن بعينيهن نجلاوين سوداوين تتوقدان ذكاءً، وبشعور طويلة غدائرها الثقيلة مُرسلة، ولون تقاوم وضاحته الفطرية حدة الشمس، وأنف ارتفع أعلاه ودب وسطه وطال طرفه، وفم مزدان بالثنايا الجميلة على ما قد يكون فيه من السعة أحياناً، وقامة وسيطة معتدلة، وقدمَيْنِ بلغتا من الصغر حداً يدعو إلى العجب، ويدين صيغتا صياغة دقيقة، وجملة القول في وصفهن أن صورتهن أقرب إلى الجمال الطبيعي بلا رتوش.

* * *

أنا لا أعلم إلى الآن شيئاً من أخلاقهن اللهم إلا ما يظهر من أنهن (أعني الغنيات منهن) يقضين أوقاتهن بين الزهور والعطور. والمربيات والحلوى، ولئن اعتمدت في الحكم عليهن على ما أسمعه عنهن ممن يحتفون بي، لقلت: «إنهن يقسمن وقتهن بين دسائس العِشق وشعائر العبادة، ولا أخال أحداً لا يدهش إذا علم أن الأديرة والكنائس تشغل من المدينة رُبعها. ومما أكدّه لي أهل ليما أن الرجال منهم شديدو الغيرة على نسائهم، ولكني لا أعتقد شيئاً مما

(١) الخلاسي: هو الذي يولد بين أبويين أحدهما أبيض والثاني أسود.

يقولون، فإنهم لو كانوا كذلك حقيقة لما أباحوا لهن الذهاب للاعتراف في أغلب الأوقات.

* * *

وصف بعض أخلاق أهل ليما وعاداتهم

ويحق لك أن تعلم أنه مع خضوع هذه البلاد للحكومة الجمهورية، ومع تشابك الأجيال فيها، وهناك بعض البيوتات الاسبانية الأصل، وهم الذين وفدوا فاتحين مع المكتشف الأول لهذه البلاد كريستوف كلومبس، وهم يرون من الامتياز أن يثبتوا صراحة أنسابهم ونقاوتهم من الاختلاط وأن يحرصوا على بقائهم كذلك، فإن هذا في رأيهم شارة من شارات الشرف، وفي رأي غيرهم والحق يقال نعمة يحسدونهم عليها. يدلك على ذلك أن الخلاسيين في الطبقة الخامسة، بل وفي الطبقة السادسة يدعوهم عجبهم إلى التألم من أن يعرفهم الناس بهذه الصفة حتى أنهم ليبذلون كل ما يملكون، لو ضمن لهم الانفكاك من أماراتها التي تراها مع نهايتها في الخفاء وقرب تلاشيها، تنم على خسة أصلهم كما تقرر في الآراء والأفكار.

ذلك ما حدا بي إلى أن أحدث نفسي غالباً بأن معيشة الناس مجتمعين، ربما كانت في بدايتها مؤسسة على حاجتهم إلى احتقار بعضهم بعضاً.

* * *

ومهما يكن من ذلك الأمر فقد كان زواج هذا الاسباني الحُر بإحدى الخلاسيات معتبراً عند كل أهل بيته من سوء الحظ، لأنه كان قد علق بأذهانهم خزعبلات متعلقة بالجيل الأحمر، ورسخت فيها شديد الرسوخ. وكانوا يرفعون عقيرتهم بانهم لا ينفكون عن تخير الأمهات. ولا أدري أكان هذا من أسباب الفرقة بين الزوجين فيما بعد أم لا، غير أنه قد عُرِف أن اقترانهما لم يقرن بالهناء والغبطة، فقد ماتت هذه الفتاة الخلاسية في السابعة عشرة من عمرها بعد أن وضعت بنتاً.

* * *

في ليما تعرفنا على إحدى الأسر الأسبانية الأصل التي تضرب بعروقها إلى الأصول العربية، إبان الفتح العربي لأسبانيا بقيادة البطل العربي طارق بن زياد تحت إمرة القائد العربي المخلص موسى بن نصير، وهم ما يزالون يحنون إلى بلادهم الأصلية (أسبانيا)، ويذهبون إليها في المناسبات، وعلمت منهم أن لهم صداقات مع بعض الأسر المغربية.

كانت الأسرة مكونة من الزوج والزوجة وابنتهما اليافعة، واسمها لولا؛ وهي في سن ولدي، وسرعان ما بدا عليهما ـ ما كنا عليه نحن الأسرتين ـ من الود والألفة والمحبة، وهما يدينان بدين المسيحية السمحة، ونحن مسلمون، قد أعاد إلى أذهاننا هذا التآلف الأخوي ما نحن عليه في مصر من الوحدة الوطنية الصادقة، والحب الخالص بين المسلمين والمسيحيين في ظل الله والوطن.

* * *

فوائد الشدائد بذل النفس للمحبوب أول الحب

كان منا حمق وطيش كادت عواقبه تكون علينا خساراً مبيناً، ذلك أني وولدي، و«لولا» خرجنا عشية أمس نتنزه والساحل ممتطين ثلاثة جياد، فأوغلنا في سيرنا معتسفين، ولا يلبث الإنسان بأدنى بحث في شكل هذه السواحل الظاهري أن يدرك أن البلاد نشأت من الزلازل الأرضية.

* * *

من أسمى الأفهام التي انتهت إليها حكمة العلم الحديثة إدراك أن للناس فوائد فيما يبتلون به من المصائب فإن لها دخلاً عظيماً في تكوين العالم المادي.

* * *

وهذا ما نراه جلياً في القرآن الكريم في آيات كثيرة جداً، كقوله تعالى: **﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنالله وإنا إليه راجعون * أولئك**

عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾[1] وقوله تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزُلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾[2] وقوله تعالى: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[3].

وما أدراك ما هذه المصائب! إذا رجت الأرض رجاً وتولاها الاضطراب، عمّ الفزع كل من على ظهرها ممن يشهدون زلزالها، ورأيت الحيوانات جافلةً حين لا تدري ماذا يُراد بها؟

وإن لمن شهد الزلازل من سكان هذه البلاد قصصاً عنها يروونها للأجانب تحاكي بعض قصص القرآن الكريم، فكأيّ من قرية كانت بالأمس عامرةً سعيدة أصبحت خاوية على عروشها، فلا يجد الباحث عنها في عرصاتها إلا أطلالاً بالية ورسوماً دارسة.

وإذا انقضت الزلازل لم يكن للناس حديث مدة الشهر التالي لوقوعها إلا قصصها المحزنة، فمن رجال ذهبت عقولهم من الفزع، وأموال لعبت بها أيدي الضياع، ونساء وأطفال وشيوخ خرّت عليهم بيوتهم فخنقهم ردمها.

* * *

لا يسلم تاريخ هذه الرزايا من اختلاط القصص به فمما يحكيه الناس هنا أنهم شاهدوا في زلزلة ليلية، وميض البروق المشؤوم أن الأرض قد انشقت وبرزت هياكل قدماء الهنود الأمريكيين من قبورها ثم عادت فغيبت في هذه المهاوي التي ما لبثت أن التأمت عليها.

* * *

سكان شطوط المحيط في هذه البلاد أشد تعرضاً للمعاطب، فإن البحر في بدء الزلازل يتقهقر عن الأرض كأنه قد ملكه الذعر، ثم يعاود الكرّة وقد هاج

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ ـ ١٥٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

غضبه، واشتد صخبه ولجُبُه، وهنالك تتكسّر أناجر السفن وتتقطع سلاسلها وتأخذها أعاصير الماء فتدور بها دوراناً، وأما جسور المياه فإنها تستسلم لضغط الأمواج فتفتح أبوابها للخراب والهلاك.

* * *

وللبيرويين من المعرفة الصحيحة بما لأرضهم التي استودعوها حياتهم وعيالهم وآمالهم من ضروب الختل ما يجعلهم في عامة أوقاتهم على حذر منها، فتراهم لا يذوقون النوم إلا غراراً مستعدين على الدوام للهبوب من بيوتهم لأقل لغط أو أدنى رجة سائلين ما الخطب؟ فإذا قيل زلزلة برزوا جميعاً.

* * *

على أن لهم بهذا القطر الذي تميد بهم أرضه كَلَف العاشقين لجماله وخصبه، فإنك تجد في البقاع المزروعة من حقول الذرة وقصب السكر والقطن والفواكه الأسبانية كالبرتقال والليمون والرمان والتين قد ازدوجت بجميع فواكه المنطقة الحارة كالموز والأناناس، فتلك الأرض المتزلزلة حبلى بالحياة فهي تنمو وتعلو وتتنفس ولا ينبغي أن ينقم منها أنها في عملها هذا تشوش عمل الإنسان أحياناً بما لها من صنوف التدمير، وضروب التخريب.

* * *

لم يسلم الشاطئ الذي كنا نتنزه عليه من فعل الزلازل الأرضية التي لا شك في أنها تبتدئ من سلسلة جبال الانديز وهي سلسلة عظيمة من الجبال بأمريكا الجنوبية. فإن الإنسان فيما يلاقيه هنالك من الشقوق والأنجاد والأغوار التي لا تلبث بعد انخسافها أن ترتفع، لا يزال يعرف ميدان تكافح الفواعل النارية.

* * *

كانت «لولا» تسير على الشاطئ وكلها زهو وعجب باستقبالها ولدي في بلادها، وترحيبها به غير مفكرة في شيء عسى أن يكون من الحبائل تحت هذا الساحل المتباين الذي دعصرته العواصف والأعاصير، فهمزت جوادها بحدة مفرطة، وأخذت به شطر البحر وكنا نحن نتبعها ولكن من بُعد لبلادة فرسينا،

على أن ولدي لم يلبث أن خفّ إليها خِفة المستيئس لما نبهته فزعتي إلى الخطر الذي كانت ملاقية له، فلما بلغ تلك الفارسة المرحة، لم تكن إلا على نحو مئة متر من هوّة بين صخرتين، كان لا محيص لها من التردي فيها بجوادها، مرسلة شعورها الطويلة في الهواء، مشرعة السوط، فأخذ ولدي بعنان فرسها، وقسره على التحوّل يُسْرَةً، فرفع يديه قائماً على رجليه.

ثم ما لبث أن وقف كأنه أُلْهِمَ الوقوف فجأةً. وأما «لولا» فقد اقتنعت حيث تغير لون وجهها، وارتعدت فرائصها، لأنها كانت أبصرت الهوّة، وشكرت لولدي همَّته بأن قبَّلته تقبيلاً يشفّ عن الوداعة وسلامة القلب كالذي من أخت لأخيها.

وفي يقيني أن هذه الحادثة لم تزد شيئاً على ما يضمره كل منهما للآخر من المحبة والوداد، ولكني أحسب أني لاحظت من عهد حصولها، فرقاً دقيقاً في رعاية ولدي لها بزيادة عطفه عليها، فكأن بذل النفس للمحبوب أول الحب. ذلك أمر لا بد أن تكشفه لنا الأيام لأني وزوجتي قد عوّدنا ولدنا أن نصدقه لمجرد قوله فلا أخاله يجسر على غشّنا.

* * *

الفصل الرابع عشر

التربية بالمؤثرات الطبيعية



التربية بالمؤثرات الطبيعية

صادفنا غداة اليوم على مقربة من ليما زنجياً آتياً إليها يلتمس رزقه من عرض طائر يُسمى البومة. . كانت قبيلة من المتوحشين اصطادته حياً، وكان صاحبه وهو شبه مشعوذ يؤمل أن ينال بعض النقود من عرضه على المتفرجين.

كان هذا الرجل على شدةٍ فاقته وعجزه عن القيام بنفقة نفسه مصحوباً بصبية زنجية عليها ثوب بالٍ أزرق، رأيت في مشيتها عَرَجاً فسألتها بالأسبانية، التي لا أحسنها، عما أصابها، فجعلها تعرج كما رأيت، فكان جوابها أن أرتني إحدى ساقيها، فإذا فيها جرح دامٍ ورأيت قدميها قد ورمتا ورماً مفرطاً، ولما أمعنت النظر في ساقها المجروحة عثرت على طرف شوكة غليظة في لحمها وهي التي تسبب عنها الجرح قطعاً ثم خبت بما اعتوره من المشي والوصب ولدغ الحشرات فإن هذين المسافرين كانا آتيتين من مسافة بعيدة جداً.

* * *

ما زلت بهذه الشوكة حتى نجحت في سلِّها ثم ضممت الجرح بعضه إلى بعض، ولما لم أجد خرقةً أعصبه بها ناولتني «لولا» منديلها ولم تقتصر على ذلك بل دعتها رحمتها بهذه الفتاة إلى خلع نعليها، ووضع قدميها المرضوضتين فيهما فلاءمتاهما أشد الملاءمة، كأنما صُنِعتا لهذه المسكينة، فأعربت لها عن شكرها ثم غادرناهما، ومشينا في سبيلنا.

* * *

انبعثت «لولا» إلى عملها هذا بباعث من بواعث الخير القلبية إلا أنها ما لبثت أن أدركت صعوبة الحفاء وخافت أن ينالها ما نال هذه البائسة المسكينة، ولكنها سرعان ما أدركت قيمة ما فعلته بغية ثواب المعروف. أنشأ ولدي يسخر من حيرة صديقته في مسيرها حافيةً، ولكنه لتأثره من صنيعها، دبت فيه النخوة فاحتملها على ظهره، فقبلت ذلك مبتسمة.

* * *

لم يكن الباقي من طريقنا طويـلاً جداً، ومـع ذلك فقـد وقف ولدي في أثنائه للاستراحة مرتين أو ثلاثاً، متبعاً في ذلك نصيحتي، وفي آخر وقفة منها، بصرنا من بعيد بالمشعوذ يقود البومه، وعرفت «لولا» الصبيّة الزنجية وقد خلعت النعلين وحملتهما في يدها فما كان أشدّ غمِّها لهذا المرأى. انظر كيف بخستها عطيَّتها؟ وكيف استعملتها؟

* * *

فسرَّيت عنها ما خـامر قلبها من الكدر بأن قلت لها: «إن العادة طبع ثان» وأن هذه الصبية لا بد أن تكون تعبت من الانتعال لاعتيادها الحفاء، على أن نية إسداء المعروف للناس محمودة على كل حال ولو أخطأ صـاحبها فيمـا يتخذه من الوسائل لإيصال النفع لهم.

* * *

والذي رأيته خيراً من هذه العظة كلها هو أن ما وجـده قلبها الـطاهر من السرور باحتمال ولدي إيّـاها، قـد دلَّها فيمـا أرى على الإنسان لا يخسـر شيئاً مما يُسْديه من المعروف.

* * *

جمال الطبيعة فخامة منظر الجبال

زرنـا بعض أجزاء جبـال الإنديـز وهي سلاسـل جبلية عـظيمة بـأمريكـا الجنوبية تشبه في عظمتها جبال الألب في أوربا، ولم يكن سبق لولدي أن شاهد

مثل هذه الجبال، فراعه كل الروع ما لهذا الخلق الهائل من مظاهر الفخامة والعظمة، مع أننا لم نبلغ منها إلا أقلها ارتفاعاً.

* * *

لا بد أن ألاحظ هنا أن القدماء كانوا قليلي التأثر بما للجبال الشامخة من المحاسن الرائعة، فإنا لم نر للشعراء اللاتين من الكلام فيها إلا النذر اليسير ومعظم ما قالوه فيها استهجان واستقباح، وقد يحدو بي ذلك إلى القول: بأنه كان يلزم أن يدهمهم من الكوارث المحزنة ما تهتز له نفوسهم، وأن تستضيء بصائرهم بنور العلم، ويتمكن منها الاستعداد للبحث والتنقيب الذي هو من مزايا العصور الحديثة ولو تمَّ لهم هذا لأدركوا أن في سيرنا على ظهر كوكبنا الأرضي الذي نعيش عليه من المظاهر الهائلة البديعة ما يدعو إلى الإعجاب الحقيقي.

* * *

العودة إلى الوطن:

ها هي رحلتنا إلى هذا البلد الطيب قد قاربت على الانتهاء ولكن ما أجمل الوطن في عيوننا وقلوبنا، وما أحلى العودة إلى مصر، لم يبق إلا السفر وإنه ليشق علينا مفارقة اسرة «لولا» الكريمة، وفي يوم السفر قبَّلناهم شاكرين لهم هذه الصحبة الكريمة لنا وتواعدنا أن نلتقي بهم في القاهرة حيث زيارتهم القادمة لنا.

* * *

ماذا استفاد ولدي من هذا السفر؟

قررنا العودة بالطائرة لحاجتنا إلى الوقت ولازدياد شوقنا إلى مصر ورؤية الأهل والخلّان بها فما أحلى العودة إلى الوطن! قررت «لولا[1]» أن تعود معنا شوقاً منها لرؤية مصر ولأنها تعلم فوق ذلك أننا نحبها، وستظل معنا إلى أن يأتي أبواها لزيارتنا في مصر.

* * *

---

(١) عادت لولا مع أبيها بعد تمام زيارتهم لمصر ولم يكن مقدراً لحبهما أن يستمر وكما هو شأن حب المراهقة.. سرعان ما نسيها الابن وتشاغل عنها.

ما ندمت على هذا السفر بحال! فولدي قد أمضى وقته هنا في الالتفات إلى العلم، والإمعان في مسائله فهو يعود إلى مصر الآن، ناقلاً إليها مجاميع في علم التاريخ الطبيعي، بل حاملاً ما هو خير له من ذلك؛ ضروب الانفعال الكثيرة بما رأى، وصنوف الذكر لما وعى، وقد تربى طبعه في مدرسة الاختبار، والحياة التي لا يربي الرجال غيرها. نعم إني لا أعني بهذا القول أن الزم جميع من هم في سنه من المراهقين أن يبتعدوا عن أوطانهم بقدر ابتعاده، ولكن رأيي الذي لا أحول عنه هو أنهم لو خرجوا قليلاً من أصدافهم ورأو الكون في الكون قبل أن يروه في الكتب لغنموا من ذلك أكثر مما يخطر في الوهم.

* * *

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه.

فهرس الموضوعات